الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة زيان عاشور –الجلفة-
كلية الآداب و اللغات و الفنون
قسم اللغة العربية و آدابها

مدرسة الدكتوراه: الأدب العربي قديما و حديثا

الانتحال بين الجاحظ و طه حسين
دراسة موازنة

مذكرة تخرج تدخل ضمن متطلبات نيل شهادة الماجيستير في الأدب العربي
تخصص: الأدب العربي قديما و حديثا

إعداد الطالبة:
- معمري فاطنة.

إشراف الأستاذ:
* د. مسعود عامر

السنة الجامعية
2016/2015

بسم الله الرحمن الرحيم

"اللّهُ نُورُ السّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الْزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "

النور الآية.35

إهداء

ف بالحق لذي الحق إذا حق له الحق

فلا خير بمن ينك ر ذا حق له الحق

إلى روح أبي الطاهرة طيب الله ثراه

إلى التي طالما وقفت بجانبي وحفتني ببركات دعائها في كل مرحلة من مراحل

حياتي إليك أمي الغالية.

إلى أساتذتي في كل أطوار تعليمي وكل من علمني حرفا.

إلى كل من آزرني في كل خطوة أهدي هذا العمل المتواضع.

مقدمة

مقدمة:

بدأ العرب يمارسون نقد الشعر منذ العصر الجاهلي، فتعددت بذلك القضايا النقدية وكثرت الاختلافات بين النقاد حولها ،وقد تناولنا في بحثنا هذا أحد أهم القضايا التي أثارت الجدل في أوساط النقاد وهي الانتحال.

إن الحديث عن ظاهرة الانتحال في الشعر الجاهلي ليس حديث العهد وإنما يعود إلى عصور قديمة مضت وقد طرحت هذه القضية في كتب الأدب العربي خاصة في الشعر الجاهلي الذي دخله انتحال كثير .

و قد اتخذتها القبائل التي قلت وقائعها و أشعارها، فأرادت أن تلتحق بمن له الوقائع و الأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم ، كما أن هذه القضية لفتت أنظار الباحثين المحدثين من العرب و المستشرقين ، لذا يتناول هذا البحث قضية الانتحال.وقد آثرت أن أتخذ هذا الموضوع كدراسة موازنة بين "الجاحظ "و" طه حسين".

"الجاحظ" باعتباره أحد كبار النقاد عصرئذ، فقد واجه جملة من الطروحات أوالمعايير النقدية التي كانت سائدة في عصره كالحداثة و القدم، و اللفظ والمعنى و السرقات و التشبيه، و الانتحال و غيرها و قد عبر عن هذه الإشكاليات بوضوح و قوة و كشف عن الكثير من الإشكاليات التي كانت سائدة في عصره، عصر ظهور الحركات الفكرية و نضج الفكر المعتزلي.

و" طه حسين" باعتباره رائدا من رواد العصر الحديث تناول قضية الانتحال بجرأة مما أثار حوله جدلا كبيرا ولغطا عديدا فتعرضت كتاباته للنقد من قبل العلماء، فلم يواجه نقدا فقط بل واجه ثورة عارمة لتكون نقطة تحول في حياة الناقد و في مسيرته الأدبية، كما أن لها الأثر الكبير في تغير نظرة القراء له.

لعل من أهم الأسباب التي دفعتني لاختيار الموضوع هو أن الكثير من النقاد أثاروا هذه القضية و لكن أكثر النقاد تعرضا للاتهام هو طه حسين

– قضية الانتحال و ما أثارته من جدل على مر الزمن، فلم تتوقف عند القدامى من النقاد بل كانت مثار نقاش للعلماء المحدثين و حتى المستشرقين.

– "الجاحظ" و فكرته عن الانتحال و التي أرجعها إلى أسباب عدة.منها سعي الجاهليين إلى تخليد ماثرهم وابقاء ذكراهم.

- "طه حسين" و كتابه في الشعر الجاهلي الذي حمل الآراء الكثيرة حول قضية الانتحال و حمل الأسباب التي جعلته يشكلك في صحة الشعر الجاهلي و يجعل جلة منتحلا في العصر الإسلامي.
- الأسباب التي ذكرها كل من "طه حسين" و "الجاحظ "و اعتبروها من أهم الأمور الداعية إلى الانتحال.
- النقد الشديد الذي تعرض له "طه حسين" و اتهام العلماء له في دينه و عقيدته.
- ردة فعل "طه حسين" و كيفية تعامله مع القضية.

تكمن إشكالية البحث في فهم المنهج النقدي الذي اتبعه كل من "طه حسين" و"الجاحظ" في تقصي دراسة الانتحال بينهما، إضافة إلى فهم موضوع الانتحال عند كليهما و طريقة التعامل مع النص النقدي في عصر كل منهما و المعايير النقدية وقت ذلك.

فماهي أوجه الاختلاف والاتفاق بينهما في دراسة هذه القضية ؟ سواء من حيث المعايير المتبعة في التمييز بين الشعر الصحيح والمنتحل، أو أسباب الانتحال التي أوردها كل منهما أو المنهج المتبع عند كل من الجاحظ وطه حسين في النقد ، ومامدى نجاعة منهجيهما في دراسة قضية الانتحال ؟

يهدف البحث إلى النقاط الآتية:

١-/ تعريف ظاهرة الانتحال.

٢-/الانتحال عبر التاريخ.

٣-/توضيح ما جاء به كل من الجاحظ وطه حسين عن فكرة الانتحال.

٤-/المعايير الصحيحة في رأي كل منهما للتمييز بين الشعر الصحيح والمنتحل.

٥-/نقاط الاختلاف و الاتفاق بينهما.

أما فيما يخص منهج الدراسة المتبع فقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي و المنهج المقارن، نظرا لما له من أهمية في دراسة الظاهرة و وصفها، أما المنهج المقارن فهو يفيد في الموازنة بين كل من الجاحظ و طه حسين و دراستهما لقضية الانتحال، ورصد أهم نقاط التشابه والاختلاف.

و الإلمام بهذه المناهج يجعل النتائج المتوصل إليها سليمة أو قريبة من الصحة.

و عليه قد جاء عنوان بحثنا على النحو الآتي:

- الانتحال بين الجاحظ و طه حسين دراسة موازنة.

وقد تضمن البحث ثلاثة فصول و خاتمة، على النحو التالي:

- **الفصل الأول:** مؤثرات العصر في ثقافة الكاتبين.

و تضمن مبحثين: المبحث الأول: جوانب من حياة الجاحظ

والمبحث الثاني:جوانب من حياة طه حسين، و قد تناولنا مولد و نشأة كل منهما، الثقافة الحياة العملية والعملية، و الآثار التي تركها كل منهما.

- **الفصل الثاني:** القضايا النقدية بين الجاحظ و طه حسين، حيث تناولنا بعض القضايا النقدية التي تناولها الجاحظ، و المتمثلة في السرقات الشعرية، قضية الوضوح والغموض، قضية الصدق و الكذب، الطبع و التكلف اللفظ و المعنى.

ثم تطرقنا إلى القضايا النقدية نفسها عند طه حسين.

- **الفصل الثالث:** خصصناه للجمع بين آراء كل من الجاحظ و طه حسين ليكون ثمرة البحث فتناولنا فيه أوجه الشبه التي اتفق فيهما كلا الناقدين فكانت قواسم مشتركة بينهما ونقاط الاختلاف التي باعدت بينهما وفق نظرة كل منهما إلى الموضوع.

وبالنسبة لأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها البحث فهي:

كتاب "في الشعر الجاهلي" لطه حسين لكونه أكثر الكتب إثارة للموضوع فضلا عن كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ لما له من أهمية فهو يزخر بالنصوص التي تهمنا في بحثنا.

إضافة إلى كتب أخرى: "الحيوان "،" تحت راية القرآن" لمصطفى صادق الرافعـــي و مراجع أخرى حيث استفدت من كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي".

وكتاب " قضايا النقد القديم " من تأليف كل من "محمد صايل حمدان" و"عبد المعطي نمر" و"معاذ الجمحي".

وفيما يخص الدراسات التي سلطت الضوء على موضوع الانتحال فهو كتاب نقض كتاب في الشعر الجاهلي للسيد محمد الخضر حسين نقد كتاب في الشعر الجاهلي تأليف محمد فريد وجدي.

معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين للدكتور إبراهيم عوض غير أن هذه المراجع تناولت موضوع الانتحال عند كثير من النقاد وتناولت كل ناقد على حدا، دون أن تثير موازنة بين آراء هؤلاء النقاد.

وسنتناول في بحثنا هذا جل الآراء السابقة، ونركز كل اهتمامنا على آراء الجاحظ وطه حسين في قضية الانتحال، وكيف تناول كل منهما هذه القضية ثم الموازنة بينهما بإبراز أهم نقاط الاختلاف ونقاط الاتفاق بينهما .

وفي ختام هذا البحث لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل: الذي قام بتوجيهي وترشيد خطاي، والشكر موصول للجنة المناقشة التي صوبت كل ما يحتاج إلى تصويب، فلهم مني جزيل الشكر والعرفان والله من وراء القصد كما أشكر كل من قدم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث المتواضع.

الفصل الأول

مؤثرات العصر في ثقافة الكاتبين

1/ جوانب من حياة الجاحظ

2/ جوانب من حياة طه حسين

١- جوانب من حياة الجاحظ:

أ- عصر الجاحظ:

يعتبر العصر الذي عاش فيه الجاحظ عصر استقرار و ازدهار على جميع الأصعدة، فعلى الصعيد السياسي امتاز بقوة الخلافة، و عظمة الخلفاء، أما على الصعيد الثقافي فقد عرف تطورا على مستوى النثر والشعر، في حين شاع في الحياة الاجتماعية التحضر والترف والمجون.

أ١- سياسيا:

امتاز هذا العصر بقوة الخلافة، وعظمة الخلفاء و مجد الدولة، و نفوذ الفرس، ولقد عاصر الجاحظ ملوك الدولة: الهادي و المأمون و المعتصم، وعصر المأمون من أزهى عصور الدولة العباسية فقد اهتم بالعلم وجعل من مجلسه ندوة علمية كبيرة واتصل بالعلماء، أما المعتصم فيعود له الفضل في جعل سامراء معسكرا ومقرا للدولة العباسية.[١]

أ٢- ثقافيا:

لم يترك اللغويون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلي أو إسلامي إلا ودونوها وفسّروها، ومن أهم ما دفعهم إلى ذلك القرآن والحديث، مما جعل الجاحظ يقول:" للعرب أمثال واشتقاقات و أبنية، وموضع الكلام يدل عندهم على معانيهم وإراداتهم فمن لا يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل...[٢]"

[١]- محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي، ص١٣.

[٢]- شوقي ضيف، الأدب العربي العصر العباسي الأول، ص ١٢٨.

نظم العباسيون الشعر في الموضوعات القديمة، لكنهم لم يقفوا عند هذا الحد فقد استحدثوا فنونا جديدة منها:فن الشعر التعليمي حيث ينظم فيه الشعراء قصصا أو معارفا أو أخبارا.

كما استحدثوا أوزانا جديدة: هي المغتصب والمضارع والمتدارك، إضافة إلى تطور النثر فظهر النثر العلمي والفلسفي والتاريخي...[1]

كل هذه التطورات هيأت الأسباب والوسائل للجاحظ مما جعله على ذلك القدر من الثقافة.

أ٣- اجتماعيا:

استمتع الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسي بالبذخ وكذلك ما اتصل بهم من شعراء ومغنين وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء بأسباب النعيم ومرد ذلك إلى الطغيان والفساد، لأن هذا الأمر اقتصر على طبقة من الناس.[2]

ب- مولده ونشأته:

يعتبر الجاحظ من كبار أدباء العصر العباسي ومازالت كتبه إلى اليوم تعتبر من أهم مصادر الأدب، وعلى الرغم من شهرته فقد اختلف العلماء وتضاربت آراؤهم في نشأة الجاحظ ومولده يقول أحمد السيد:« على الرغم مما بلغه الجاحظ من مكانة، وشهرة اجتماعية وفكرية وأدبية فقد ظلت بعض معالم حيات، وأصله وتاريخ مولده ومكانه مثار نقاش وجدال بين الباحثين الذين لم يبتوا فيها حتى الآن، والحق إن كان مشكلة فهي غير ذات شأن خطير يؤثر في ما قدمه». [3]

---

[1]- المرجع السابق، ص ١٩٤

[2]- المرجع نفسه، ص ٥٧.

[3] - عزت السيد أحمد ، فلسفة الأخلاق عند الجاحظ ، ص ١٠.

فكل ما يهمنا هي تلك الثروة الأدبية التي خلفها والتي كانت وستظل خير زاد لطالب العلم سواء كان تلميذا أو أستاذا أو ناقدا، وإن كان الشاعر المتنبي ملك الشعر العربي فإن الجاحظ ملك النثر العربي من دون منازع وقد اختلف الرواة والمؤرخون على تحديد تاريخ ميلاده أيما اختلاف « فمنهم من زعم أنه ولد في سنة ١٥٩هـ، ومنهم من يرى غير ذلك، ولكن الذي لا يصح أن يشك في صدقه أو يرتاب في صوابه ما قرره هو عن نفسه، ونقله إلينا ياقوت في معجمه فقد روى أنه قال: أنا أسن من أبي نواس بسنة ولدت في أول سنة ١٥٠هـ "٧٦٧م "وولد في آخرها.

و كانت نشأة الجاحظ بالبصرة، وظل بها عاكفا على التعلم والدرس والإطلاع وكان كثيرا ما يترك البصرة قاصدا غيرها من المدن الإسلامية المعروفة في ذلك العهد للبحث والاستقراء ولقاء العلماء».[١]

وبعد هذا التنقل بين المدن من أجل اكتساب العلم والمعرفة والاستفادة من العلماء يعود إلى البصرة محملا بأصناف العلوم وضروب الآداب. « ولما جاوز الخمسين من عمره عنت له الرحلة إلى بغداد واتخذها دار إقامة له، وذلك في عهد المأمون الذي طار بها إلى أوج الرقي والعلاء، وكان دخوله إلى بغداد في سنة ٢٠٤هـ، وفي الوقت الذي قدم إليها المأمون، وما إن استقر به المقام فيها حتى تصدر التعليم والمناظرة والتأديب والمحاضرة فقصد إليه العلماء، والأدباء وأقبل عليه الطلاب من كل صنف، ومن كل جنس، وعلى اختلاف الملل وتباين النحل.» .[٢]

وكما ذكرنا سابقا فإن عصر المأمون عرف تطورا وازدهارا في مختلف العلوم إضافة الى حرص المأمون على رعاية العلماء وتوفير مايحتاجونه مما سهل على الجاحظ مهمة التعليم وتدريس الطلاب.

[١] – حسن السندوبي ، أدب الجاحظ ، ص٢٢.

[٢] – المرجع نفسه، ص ٢٣ .

جـ – اسمه أصله ونسبه:

جـ١– اسم الجاحظ:

الجاحظ لقب أطلق عليه لجحوظ عينيه أي بروزهما ولكن هذا اللقب لم يؤثر عليه فقد برز عقله ولمع في الأدب واسمه الكامل« أبو عثمان عمر بن بحر الكناني الفقيمي البصري، ذلك هو الاسم الكامل للجاحظ بصرف النظر عن لقبه الذي حفظته لنا الأجيال قد أطلق عليه لقب "الجاحظ". و ربما لقب الحدقي و هو أقل ذيوعا من لقبه الأول».[١]

لم يرض الجاحظ عن هذا اللقب في شبابه وحتى في شيخوخته، وكان يضجر ويستاء ممن يدعوه به، وحاول مرارا أن يفهم الناس أن اسمه "عمرو" أو أن يدعى أبا عثمان، وقد ألف الجاحظ فيما بعد رسالة فيمن سمي من الشعراء "عمرا" و ألف رسالة أخرى وجهها إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب، ذكر فيها ثلاثين شخصا كنيتهم أبو عثمان.[٢]

ولكن دون جدوى فقد علق هذا الاسم بالأذهان، وأصبح لصيقا به وهكذا استسلم واقتنع به، يرى شارل بيلا « بأن الجاحظ يدعى في كتبه أبا عثمان، أو عمرو بن بحر، و لكنه أطلق على نفسه في شيخوخته اسم الجاحظ، و نتج من ذلك أنه كان لا يرى مانعا من أن يدعوه أصدقاؤه بهذا اللقب.

إن هذا اللقب الذي حمله أول مرة رجل من أصل وضيع، ذو شكل قبيح أصبح فيما بعد عنوان شرف في مهنة الأدب».[٣]

والجاحظ الذي تبرم في بداية حياته من هذا الاسم وكان مستاء ممن كانوا يكنونه به، استسلم في آخر الأمر لهذا القدر المحتوم وتقبل الفكرة، ليصبح اسم الجاحظ لا يدل

---

[١] – المرجع السابق، ص٢٣.

[٢] – شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص٩٩.

[٣] – المرجع نفسه، ص١٠٠.

على المعنى في نفسه فعندما تسمعه لا تستحضرك صورة سيئة بل تظهر أمامك صورة العالم الجليل.

جـ٢- شكله وصفاته:

يمتاز بقصر القامة وجحوظ العينين أي بروزهما إضافة إلى ذمامته الشديدة، كما أنه « قصير القامة، صغير الرأس، دقيق العنق، صغير الأذن و إن أشهر النوادر على قبح الجاحظ هي التي أنطقوه بها عن نفسه حين قال: "ما أخجلني إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتا ثم سألت الصائغ، فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأتت بك لأصوره على صورتك"».[١]

ومن القصص التي رواها عن نفسه، والتي تدل عن قصر قامته مزحه مع امرأة طويلة القامة قال لها: «انزلي كلي معنا، فأجابته اصعد وانظر السماء»[٢]، و ذمامة خلقته هذه لم يكن لها تأثير على حياته العملية و العلمية فقد مضى قدما يطلب العلم، و يلح في طلبه غير مهتم بمنظره ومايقوله الناس عنه.

« وإن كان الله لم يجمل من صورته فقد حباه بعقل جعل منه راوية متكلما فيلسوفا، كاتبا مصنفا، مترسلا شاعرا، مؤرخا عالما بالحيوان و النبات و الموات وصافا لأموال الناس و وجوههم و معايشهم و اضطراباتهم و أخلاقهم و حيلهم، إلا أنه غلب عليه أمران: الكلام على طريقة المعتزلة، و الأدب الممزوج بالفلسفة و الفكاهة... و كان على ذمامة خلقه و تناقض خلقه خفيف الروح، فكه المجلس غاية في الحرص و طيب الفكاهة و حلاوة الكلام. و هو على الجملة أحد أفذاذ الكلام و إحدى حجج اللسان العربي».[٣]

---

[١] – المرجع السابق، ص ١٠٣.

[٢] – الجاحظ، فلسفة الجد والهزل تح محمد علي الزعبي، ص١٦.

[٣]– سيد أحمد الهاشمي، ص١٧٣.

جـ٣- أصله ونسبه:

وكما دار كثير من الشك حول ولادته، فكذلك الأمر بالنسبة لأصله فقد اختلف المؤرخون والنقاد في أصل الجاحظ، فذهب بعضهم إلى أنه من أصل عربي ونسبه آخرون لأصول غير عربية، وكل له غايته إما اعتزازا به كونه عربي أو تقليلا من قيمتــه، وأشار إلى ذلك شارل بيلا حين قال: «فإن مترجميه منقسمون إزاء هذه القضيــة، و كل واحد منهم إذا لم يحاول أن يكون حياديا بإيراد جملة من الأخبار،فإنه يحاول أن يضارب بشهرة الجاحظ ليدعم نظريته العرقية أو يشير إلى أصله المجهول ليحط من عبقريته و يقلل من حماسة المعجبين به».[١]

يشير "الخطيب البغدادي" و من بعده "ابن عساكر" إلى أن الجاحظ ينتسب إلى قبيلة مضريـة من كنانة ضاربة من جهات مكـة، ثم يعلنان دون أي تحفظ أنه إما كناني قح من صلبهم أو مولى لهذه القبيلة.

فقد زعم بعض الرواة أنه كان مولى لأبـي القلمس عمرو بن قلـع الفقيمـي النساء، و كان" القلمس" من حكام العرب و ذوي الرأي فيهم و الرجحان عندهم.

ففي هذه الأسرة الماجدة نشأ أصل الجاحظ و توشجت أعراقه، و إليها كان انتماؤه وانتماء أبائه و أجداده، كان "فزارة" جد الجاحظ أسود، و من هنا يتطرق الشك إلى الأذهان في عربية الجاحظ و أسرته. و خصوصا لما زعمه بعض الرواة، و لكن السواد لا يصح أن يؤخذ دليلا على نفي العروبة فقد كان هذا اللون شائعا في العرب بل اعتبر مما كانت تفتخر به.[٢]

و كثيرا ما كانت العرب تعجب به و تؤثره على غيره «فسواد "فزارة" الجاحظ لا يعد دليلا على نفي العروبة عنه كما نجد الجاحظ في كتبه، و في كل ما روي عنه شديد

[١] – شارل بيلا، المرجع السابق، ص١٩٣.

[٢]– حسن السندوبي ،المرجع السابق، ص١٣.

العصبية للعرب، و لا يرى أمة من الأمم تفضل الأمة العربية بأي خصلة من خصال الخير و النبل و ما من مزية من مزايا الإنسانية، إلا و العرب أسبق الأمم إليها و أحقهم بها».[١]

ونحن كطلبة علم لا يعنينا نسب وأصل الجاحظ بقدر ما تعنينا هذه الكتب والمؤلفات التي تركها لنا للاستفادة منها.

د- فلسفة الجاحظ ومنهجه العلمي:

د ١-الفلسفة والاعتزال لدى الجاحظ:

لم يعتبره مؤرخو الفلسفة فيلسوفا، ولكنه قدم موضوعات وأفكار فلسفية لا تقل شأنا عما قدمه الفلاسفة. «تلاحقت في ذهن الجاحظ أصالته المبدعة و قريحته المتقدة مع غزارة المعارف و الآداب و العلوم التي استقاها من مناهل متعددة الجوانب، و متباينة الاتجاهات و أثمرت رؤية جاحظية لمختلف هذه المعارف والآداب و العلوم».[٢]

و لو أردنا تتبع كل جوانب أصالته و مواقفه لطال بنا الأمر كثيرا و لذلك سنقتصر قدر الامكان على أهم مميزات فكر الجاحظ وفلسفته، في الحقيقة لم يدرج مؤرخو الفلسفة اسم الجاحظ مع الفلاسفة، لكن هذا لايمنعنا من أن نصفه بالفيلسوف الملهم، إلا إذا أصررنا على التعامل مع الفلسفة التعامل النمطي الذي ينفي عن العرب أي نصيب أو إسهام في الفلسفة، بل حتى لوتعاملنا مع الفلسفة التعامل النمطي الذي فرضه التاريخ العربي للتفلسف من خلال المعايير الغربية فإننا لا يمكن أن نصرف النظر عن تلمس ما يفسح في المجال بين مقاعد الفلاسفة لمقعد جاحظي.[٣]

ويمكن أن نلمس الأفكار الفلسفية من خلال أعماله ومؤلفاته فقد عالج مواضيع فلسفية وفيزيائية، وميتافيزيقية فتحدث في الألوهية والخلق و النبوة و الإنسان و مشكلاته الاجتماعية

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٣.

[٢]- عزت السيد أحمد، المرجع السابق، ص١٣.

[٣] - المرجع نفسه، ص١٤.

و الأخلاقية والجمالية و الدينية و النفسية.... فوصل إلى نتائج إما قديمة و لكن بأسلوبه و طريقته و منهجه، و إما جديدة لم يسبق إليها، ومن هنا لا يمكن القول بأنه ليس فيلسوفا.

ويرى مؤرخ الفلسفة الإسلامية "*ج، دي بور" بأن الجاحظ أعظم رجل أخرجته لنا مدارس النظام ، و يجمع الكثير من مؤرخي الفكر العربي و مؤرخي الفرق الإسلامية أمثال أبي الحسن الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين، وابن المرتضى في كتابه طبقات المعتزلة وابن خلدون في مقدمته على أن الجاحظ أحد كبار شيوخ المعتزلة وصاحب فرقة من فرقهم هي التي دعيت بالجاحظية و كان لها أنصار و أتباع.

اتفق أبو عثمان مع "المعتزلة" في مبادئهم الرئيسية، المعروفة بالمبادئ الخمسة وهي:العدل، و التوحيد، و المنزلة بين المنزلتين، و الوعد و الوعيد، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و لكنه اختلف عنهم، فطبق نظريته المعروفة والتي تتمثل في مجموعة من الأفكار والآراء قادته إلى آرائه الخاصة في الله و النبوة و الإمامة. [1]

يرى الكثير بأن الجاحظ من كبار المعتزلة، والمعتزلة فرقة تعتمد على العقل في التمييز بين الحلال والحرام، ومن هنا يمكن أن نلاحظ استخدام الجاحظ للعقل في تمييز الأمور.

و من أهم ما انفرد به قوله: « الإنسان عنده قادر أن يعرف الخالق بعقله، و على أن يدرك الحاجة إلى الوحي الذي ينزل على الأنبياء"و عنده أن العالم الحق يجب أن يضم إلى دراسة علم الكلام دراسة العلم الطبيعي، و هو يصف في كل شيء أفاعيل الطبيعة و لكنه يشير إلى ما في هذه الأفاعيل في خالق الكون».[2]

---

[1] – المرجع السابق، ص ١٥.

***ج دي بور** مستشرق هولندي درس الآداب العربية تخصص في الفلسفة الإسلامية.

[2] – المرجع نفسه، ص ١٥.

وهذه النظرة الاعتزالية «عماد الاعتزالية الجاحظية و جزءا صميما من الفكر الاعتزالي في عمومه، كانت هناك بعض اللمسات الفلسفية التي أفاد منها الفلاسفة اللاحقون».[1]

د٢- منهجه العلمي:

انتهج الجاحظ في كتبه و رسائله أسلوبا بحثيا، يتمثل في منهج البحث العلمي، والذي يقوم على الشك في بدايته، ثم ينتقل الى النقد، ويمر بالاستقراء و سماعه و نقده و شكله و تعليله، فقد طبق المنهج العلمي للوصول إلى اليقين،فهو يعمل عقله في البحث عن الحقيقة.

*** الشك:**

لم يعتمد أبو عثمان على الشك أساسا من أسس منهجه في البحث العلمي بل تطرق لمكانة الشك و أهميته من الناحية النظرية في كثير من مواضع كتبه، و من أهم ما قاله في ذلك "أعرف مواضع الشك و حالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين و الحالات الموجبة له، و تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، و لم يجتمعوا على أن اليقين طبقات في القوة و الضعف".

و من هنا تتضح أمور مهمة توضح أصالة الجاحظ، و تبين عبقريته، فهو لم يرد الشك لمجرد الشك، و لا يقبل أن يكون الشك كيفما اتفق و لا في كل أمر على حد سواءو لا بالطريقة ذاتها، فلا يكون الشك في كل أمر، كما تختلف نسبه باختلاف المواضيع، إن الشك الجاحظي بهذا المعنى لا يختلف البتة عن الشك المنهجي عند الإمام الغزالي و الفيلسوف الفرنسي "رينه ديكارت"، فكل منهما أراد الشك طلبا للحقيقة، الحقيقة الجلية الواضحة التي لا تقبل تفاوتا في الدرجات.[2]

[1] – المرجع السابق،ص١٦.

[2] – المرجع نفسه، ص١٧.

فالجاحظ اعتمد الشك كمنهج للوصول إلى الحقيقة، وبهذا يكون قد سبق "ديكارت" في فلسفة الشك.

***النقد:**

حينما نتتبع كتب "الجاحظ" و رسائله، نكتشف عقليته النقدية البارعة، نقدية بالمعنى الاصطلاحي المنهجي و بالمعنى الشائع للانتقاد، فنقده بالمعنى الشائع يتمثل في سخرياته وتهكمه في كل موضوع يطرقه، وهذا النوع من النقد ينفرد به الجاحظ عن غيره. و من ذلك مثلا تهكمه بـ: "الخليل بن أحمد الفراهيدي" من خلال علم العروض الذي قال فيه: "العروض علم مردود، و مذهب مرفوض، و كلام مجهول يستكد العقول، بمستفعل ومفعول، و من غير فائدة و لا محصول".[1]

أما النقد المنهجي فيظهر في كتبه و رسائله، ومن خلال الموضوعات المعرفية العلمية والأدبية التي تطرق إليها، ومن ذلك نقده لعلماء عصره و محدثيه ورواته و فقهائه و العلماء السابقين.

والملاحظ في أثاره أنه كان ينفي الخرافات في عصره، فكان يستفتح الأخبار المغلوطة بقوله زعم فلان ويعقب عليه بالنقد والتحليل حتى لا يترك مكانا للشك في قوله.[2]

***التجريب والمعاينة:**

وكما يعرف في مجال العلوم الطبيعية بأن التجربة أمر مهم، وهي خطوة مقترنة بالنقد و متلازمة معه، فالفرضية أو الشك يحتاج إلى تجربة تؤكد الحقائق وتقطع مجال الشك ، و الجاحظ لم ينس هذه الخطوة و لم يتناساها بل جعلها عمادا لازما من أعمدة منهجه البحثي، و قد بدأ ذلك في اتجاهين، يتمثل الأول في قيامه بنفسه بالمعاينة

[1] – المرجع السابق، ص١٨.

[2] – المرجع نفسه، ص ١٩.

و التجريب أما الثاني فيتمثل في نقله لتجارب أساتذته و معاصريه، و قد أجرى الجاحظ تجارب و معاينات كثيرة ليتأكد من معلومة وصلت إليه، أو لنفي خبر تناهى إلى مسمعه و لم يستسغه عقله، فهو لا يقبل أي أمر إلا إذا تأكد من صحته وعرضه للتجربة و الأمثلة على ذلك جد كثيرة، منها تجربته في زرع شجرة الآراك.[1]

وتظهر مما سبق عبقرية وذكاء الجاحظ، فهو لا يقبل المعلومة كما هي إلا إذا عرضها للشك والنقد والتجربة ليؤكد حقيقتها فيقابلها بالقبول أو الرفض.

هـ- حياته العلمية و العملية:

ما بين أحضان البصرة و بغداد تكونت شخصية الجاحظ، واكتملت ثقافته فقد نهل من منبع البصرة التي ولد فيها فتعلم و تفتحت مواهبه، و انفجرت الظاهرة الأدبية و لأن الجاحظ ميال لحب العلم، طموح لاكتساب المعرفة و حتى يشبع غروره المعرفي، رحل إلى بغداد ليشرب من معينها الصافي.

عرف عن الجاحظ عشقه للمطالعة منذ الصغر، فلا يقع كتاب بين يديه إلا أتم قراءته حتى أنه فيما اشتهر عنه أنه« لم يكن يقنع أو يكتفي بقراءة كتاب أو كتابين في اليوم الواحد، بل كان يكتري دكاكين الوراقين و يبيت فيها للقراءة، و يورد "ياقوت الحموي" قولا لأبي هفان- وهو من معاصريه و معاشريه- يدل على فهم الجاحظ بالكتب.

يقول فيه:" لم أر قط و لا سمعت من أحب الكتب و العلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا من كان "».[2]

لم تقتصر معرفة الجاحظ على الكتب، فكل دارس يحتاج إلى معلم ليوجهه ويرشده وينير طريقه، فكذا الحال بالنسبة للجاحظ فقد اعتمد في تلقيه العلم على أساتذة تتلمذ

[1] . المرجع السابق ، ص٢٠.

[2] – المرجع نفسه، ص ١٢.

على أيديهم وكان لهم الفضل فيما وصل إليه، فالعلم لا يمكن أن يؤخذ عن الكتب دون اللجوء إلى معلم. «لقد تكونت لدى الجاحظ ثقافة هائلة و معارف طائلة عن طريق التحاقه بحلقات العلم المسجدية التي كانت تجتمع لمناقشة عدد كبير و واسع من الأسئلة، وبمتابعة محاضرات أكثر الرجال علما في فقه اللغة و فقه النحو و الشعر وسرعان ما حصل الأستاذية الحقيقية في اللغة العربية و بوصفها ثقافة تقليدية، وقد مكنه ذكاؤه الحاد من ولوج حلقات المعتزلة حيث المناقشات الأكثر بريقا، والمهتمة بالمشكلات التي تواجه المسلمين، و بالوعي الإسلامي في ذلك الوقت».[1]

أما أساتذة الجاحظ الذين تتلمذ على أيديهم و روى عنهم في مختلف العلوم و المعارف فهم كثيرون جدا.« في طليعة هؤلاء "أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي بالولاء" روى عنه الجاحظ الأشعار الأخبار و اللغة و الطبيعيات. وتعلم الجاحظ على يد "الأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي" وكان أستاذا للجاحظ الذي اتصل به و أخذ عنه الأشعار و الأخبار و النوادر و المعارف الطبيعية عن الحيوانات، و قد روى الجاحظ عنه أكثر من مائة مرة في كتاب الحيوان وحده. وأفاد الجاحظ من كتب أستاذه الأصمعي الذي كتب عن الحيوان و اللغة و النوادر و كتاب أصول الكلام نوادر العرب ، تعلم الجاحظ أيضا من "ابن الأعرابي محمد بن زياد"، مولى بني هاشم في الكوفة و قد كانت له حلقة يحضرها الكثير من المستفيدين. و أخذ الجاحظ عن "عمرو بن أبي إسحاق بن مرار الشيباني الكوفي" و كان من أئمة اللغة و الحديث، و قد وضع كتبا عدة أهمها كتاب الخيل و كتاب النوادر، و كتاب الإبل».[2]

[1] – المرجع السابق، ص١٣.

[2] – يحيا فخري عمرا لجاف، خليل حميد، النقد في العصر العباسي ـ الجاحظ ودوره الحضاري في القرن الثالث الهجري، ص ٢٦٥.

و من أساتذة الجاحظ في علوم الفقه و الحديث: «"أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي" و "يزيد بن هارون" و "الحجاج بن محمد بن بن سلمة" بالإضافة إلى "ثمامة بن الأشرس" الذي لازمه الجاحظ في بغداد.

في الاعتزال وعلم الكلام: "أبو هذيل العلاف" و "النظام" و" مويس بن عمران" و "ضرار بن عمرو الكندي و بشر بن معتمر الهلالي و أحمد بن حنبل الشيباني».[1]

عرف الجاحظ بميله الشديد للقراءة وحبه للمطالعة، وهذا الأمر لم يكن يعجب أمه لأنها كانت تريده أن يعمل ليحصل على قوت يومه، فينصرف إلى التجارة ولا يضيع وقته الثمين في الدراسة وتذكر الروايات أن أمه« جاءته بدل الغذاء بطبق كراريس، فقال:ما هذا؟ قالت: هذا الذي تجيء به، فخرج مغتما، و جلس في الجامع و "موسى بن عمران" جالس فلما رآه مغتما قال له: ما شأنك؟ فحدثه الحديث فأدخله المنزل و قرب إليه الطعام و أعطاه خمسين دينارا فدخل السوق و اشترى الدقيق و غيره و حمله الحمالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك و قالت: من أين لك هذا؟، من الكراريس التي قدمتها إلى لقد كان الجاحظ في أول أمره ضيق الرزق يبيع الخبز و السمك، و لم يبزغ نجمه إلا بعد أن انتقل من البصرة إلى بغداد، ثم علا نجمه لما اتصل بوزير المعتصم "محمد بن عبد الملك الزيات"،و يبدو أن الجاحظ عمل مرة يسيرة في ديوان الرسائل مع "إبراهيم بن العباس الصولي"، في أيام المأمون، و لكنه كره حياة الديوان وشيكا فتركها. لقد أفاد الجاحظ من جو بغداد لتوسيع ثقافته و تكنيزها، فقد كانت بغداد عاصمة العالم الإسلامي، و كانت تجتذب إليها نخبة المفكرين و أهل الفن فقد كانت عاصمة العلم و الأدب و الجمال».[2]

[1] – عزت السيد أحمد، المرجع السابق، ص١٣.

[2] _ عمر فروخ ، تاريخ آداب العرب ٢/ ٣٠٤ .

و- أسلوب الجاحظ:

من أهم المميزات الكبرى التي يتمتع بها الجاحظ أسلوبه الفريد من نوعه، فنلمس فيه عذوبة وسهولة، ومزيجا بين الجد والفكاهة ، إضافة إلى كثرة الاستطراد دون أن يشعرك بالملل، وفيما يلي نستعرض أراء بعض العلماء حول أسلوب الجاحظ.

إن أسلوب الجاحظ له مميزات عدة، والكلام عنه، بعيد الغور واسع المدى فهو لا يقتصر على طرائق تناوله موضوعات، ولا يتوقف عند تراكيبه و عباراته، ولا ينحصر في تنويعه و استطراده، و لا يكفي فيه انتقاؤه ألفاظه، و لا حتى طرائق تعامله مع الناس في حياته إنه كل ذلك و أكثر، و خاصة أن الأسلوب ينم عن شخصيته و تركيبتها النفسية، كما يقول علماء النفس[1].

وقد أعجب الكثير من النقاد بأسلوبه أيما إعجاب ومنهم أبو حيان التوحيدي أحد ألمع تلاميذ الجاحظ حيث يقول:" أبو عثمان الجاحظ فإنك لا تجد مثله، و إن رأيت ما رأيت رجلا أسبق في ميدان البيان منه، و لا أبعد شوطا، و لا أمد نفسا، و لا أقوى منه، إذا جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهور، و كل لسان المسحنفر الصبور، و انتفخ سحر العارم الجسور، ومتى رأيت ديباجة كلامه رأيت حوكا كثير الوشي، قليل الصنعة بعيد التكلف، مليح العطل، له سلاسة كسلاسة الماء، ورقة كرقة الهواء و حلاوة كحلاوة الناطل، وعزة كعزة كليب وائل، فسبحان من سخر له البيان و علمه، وسلم في يده قصب الرهان و قدمه، مع الاتساع العجيب و المعنى الجيد، واللفظ المفخم.

والطلاوة الظاهرة، و الحلاوة الحاضرة. إن جد لم يسبق، و إن هزل لم يلحق و إن قال لم يعارض، و إن سكت لم يعرض له".[2]

[1] – عزت السيد أحمد، المرجع السابق، ص ٢٢.

[2] – المرجع نفسه ص ٢٣.

كما يذكر عمر فروخ بأن للجاحظ في كتبه أسلوبان: « أسلوب أنيق فيه الصناعة و موازنة و سجع و تأنق في اختيار الألفاظ و ترديد للمعنى الواحد و يكاد يكون هذا الأسلوب مقصورا على مقدمات كتبه و مطالع فصوله، ثم له أسلوب يجري فيه على السليقة و يعالج به الموضوعات التي يتناولها في محتوى كتبه و الجاحظ في أسلوبه فصيح الألفاظ متين التركيب يمزج الجد بالهزل و كثير التهكم كما يكثر الاستطراد».[1]

والاستطراد هو الانتقال من موضوع إلى آخر، فهو ينتقل من الحديث عن الشعر إلى الفلسفة إلى الكلام عن الحيوان، فالجاحظ يفعل ذلك ترويحا عن القائل ودفعا للملل عنه و الأسلوب الذي يجري فيه الجاحظ على السليقة شديد الصلة بأسلوب "ابن المقفع" في كتاب كليلة و دمنة، إلا أن أسلوب الجاحظ أحسن وأكثر تناسق، فالذي يريد الكتابة في موضوع عام، أو موضوع علمي، أو في مجلة لجأ في الغالب إلى أسلوب ابن المقفع أما من أراد كتابة مقدمة لكتاب، أو وصف أمر من الأمور خطابة أو كتابة فإنه يتخذ أسلوب الجاحظ[2].

لكن الاستطراد وإن كان يبعد الملل فإنه يصعب الموضوع على القارئ ويشتت فكره كما يرى أحمد أمين أن الجاحظ ينفرد بأسلوب يمتاز به عن غيره، ولا ينسب إلا إليه حيث تظهر فيه شخصيته، وقد تحرر من قيود طالما لازمت علماء عصره، تحرر من الجد و الغموض، فيزاوج بين الجد والهزل، كما يتخير الألفاظ و أحسن التعبيرات، ويفر سريعا من التحقيق العلمي إلى مناحي الأدب من شعر أو حكمة أو نادرة، حتى كلامه عن الحيوان غلبت عليه النزعة الأدبية.[3]

ويتميز الجاحظ بمراعاته لمقتضى الحال، فهو يخاطب الناس بقدر عقولهم و ثقافاتهم فيحدث المثقفين بما يليق بهم، والعامة بما يتماشى مع فهمهم فهو يستعمل تارة ألفاظ جزلة رصينة، وتارة ألفاظ عذبة رشيقة، ولكل لفظة موضعها من الكلام ومن المعنى

[1] – عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي للأعصر العباسية الأدب المحدث إلى آخر القرن الرابع الهجري، ص٣٠٧.

[2] –المرجع نفسه، ص٣٠٧ .

[3] – أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٤٠٧/١.

الذي تؤديه، فهو يصيح دائما التلاؤم التلاؤم ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.[1] إضافة إلى ذلك « فهو يؤثر الكلام المرسل على المسجوع ويميل في نثره إلى المقابلة والازدواج».[2]

فأسلوب الجاحظ إذا فريد من نوعه يختلف عن غيره، فهو سهل لكن يصعب على القارئ اختراقه، وهو سمة خاصة به تجعله يمتاز عن الأدباء و المؤلفين، فلم يقلد علماء عصره ولم يتبع أسلوبهم القائم على الجد والغموض بل ابتدع أسلوبا يميزه، فهو يخلط بين الجد و الهزل في كثير من الموضوعات، ففي مواضيعه الصعبة الجاف يذكر نكتة يخفف ويرفه بها عن القارئ وينسيه صعوبة الموضوع.

ز– وفاته و آثاره:

ز ١ – وفاته:

عانى الجاحظ من المرض في الأيام الأخيرة من حياته، والذي جعله طريح الفراش مما أثر سلبا على مؤلفاته ولكنه لم يكن سببا رئيسيا في وفاته، فعلمه هو السبب، حيث يقال أنه توفي بعد سقوط جزء من مكتبته فوق رأسه، لقد أصيب أبو عثمان بالفالج وعلى الرغم من ذلك بقي القلم رفيقه والكتابة مؤنسه، و كتب عهد ذاك في كتاب الحيوان مبررا اضطراب بعض فصوله قال:" و قد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه أولى ذلك العلة الشديدة و الثانية قلة الأعوان، و الثالثة طول الكتاب".

قضى في فراشه السنين الطوال، وقد زاره "المبرد"، وهو يصارع المرض، فسأله عن حاله فأجابه: "كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير لما شعر به، ونصفه الآخر منقرش لو طار الذباب بقربه لآلمه و أشد من ذلك ست و تسعون سنة أنا فيها.[3]

---

[1] –شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ٥٩٤/٤.

[2] –زكي مبارك،النثر الفني في القرن الرابع٢٦٥/١.

[3] – جميل جبر، الجاحظ و مجتمع عصره في بغداد، ص١٢.

ثم أنشد:

أَتَرجُو أَن تكُونَ وَ أَنتَ شَيخٌ كَمَا قَد كُنتَ أَيَّامَ الشَّبَاب

لَقَد كَذَّبتكَ نَفسُكَ لِبسَ ثَوبَ دَرِيس كَالجَدِيدِ مِنَ الثيَاب"[1].

ويشير بعض الأدباء إلى أنه« كان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، بينما كان النصف الأيسر شديد البرودة، لقد اصطلحت الأضداد على جسده، على غير رحمة فكان إذ أكل باردا أخذ برجله، و إن أكل حارا أخذ برأسه، و ما زال بالداء عنيفا حتى قضى عليه».[2]

ويقول ابن خلكان:« و تذكر بعض الروايات بأنه مات و الكتاب على صدره قتلته مجلدات كثيرة وقعت عليه ».[3]

توفي الجاحظ بعد صراع مع المرض« قال المسعودي وفي هذه السنة وهي سنة خمس وخمسين ومائتين، كانت وفاة الجاحظ بالبصرة في المحرم دفن بمقبرة الخيزران».[4] أغلب الآراء تتفق في أن وفاته كانت بعد صراع مع مرض الفالج وهو نوع من الشلل النصفي، في حين يرى آخرون أن سبب وفاته هو سقوط الكتب عليه وهذا الأمر يراه البعض بأنه مجرد إشاعة نسجت بدافع الطرفة، لقد مات معلم العقل والأدب مخلفا وراءه كتبا ومقالات وأفكار خالدة ليومنا هذا.

---

[1] –المرجع السابق، ص ١٢. س

[2] –المرجع نفسه، ص١٣.

[3] –ابن خلكان، وفيات الأعيان،١٧٣/٣.

دريس= قديم

[4] – أبو الحسن بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص١٥٧.

ز ٢- آثاره:

تعددت آثار الجاحظ وتنوعت، وذلك نظرا لثقافته الواسعة و إطلاعه الدائم والمستمر وأخذه من كبار الشيوخ والعلماء، فكتب في موضوعات عدة كالإنسان، والنبات والحيوان، وفي أمور مجتمعه، ولكن اختلفت الآراء كثيرا حول عدد مؤلفاته ومهما يكن عددها يكفي أنه ترك لنا ثروة لا يستهان بها، فمؤلفاته تعتبر من أهم المصادر التي تفيد الباحث فهي خير زاد لطالب العلم. «قال المسعودي: "كتب الجاحظ تعلو صدى الأذهان، و تكشف واضح البرهان لأن نظمها أحسن نظم، و رصفها أحسن رصف و كساها من كلامه أجزل لفظ، و كان إذا تخوف ملل القارئ و سآمة السامع، فخرج من جد و هزل، و من حكمة بليغة إلى نادرة طريفة ... و سائر كتبه في نهاية الكمال... و لا يعلم ممن سلف و خلف من المعتزلة أفصح منه».[١]

يرى جميل جبر بأننا لا نجد كاتبا أو أديبا كتب ما يضاهي مؤلفات الجاحظ سواء في العدد أو تنوع الموضوعات« فهو لم يدع بابا إلا ولجه، و لا بحثا إلا جال فيه، و لقد كان له من الثقافة الموسوعية ما جعله يكتب في كل فروع العلم والأدب و السياسة

و الدين و الفلسفة، حتى زعم "ابن الجوزي" أن كتبه بلغت ٣٦٠ كتابا تناول فيها مواضيع شتى على غير وحدة في الجوهر أو تسلل في المنطق »[٢]

ومن أهم الآثار التي تركها الجاحظ من كتب ورسائل وأبحاث والتي تعد أهم مصادر العلم، وإرثا قيما للأجيال اللاحقة مايلي:

أ/كتاب الحيوان: «سبعة أجزاء» وهو بحث ضخم يتناول فيه المؤلف شؤونا لا علاقة لها أبدا بعنوان الكتاب، لم يقتصر فيه على موضوع الحيوان كما جاء في عنوانه بل تناول مواضيع عدة تمثلت في الأشعار والأحاديث، والنزاعات بين بعض الطوائف إنه موسوعة منوعة

[١] – حسن السندوبي، المرجع السابق، ص ١١٦.

[٢] .جميل جبر، المرجع السابق، ص ١٥.

تضمنت بحوثا في التعاليم الدينية، من اليهودية إلى المانوية إلى الزرداشتية إلى النصرانية إلى الإسلامية إلى الإلحادية، بما في هذه الديانات والوثنيات من شيع و نزاعات و مذاهب، كما تضمنت خواطر شخصية على هامش الحياة

أو نوادر و فكاهات، وربما كانت غايته من وضع هذا الكتاب تمجيد للخالق من خلال عجائب الكون و امتداح للإسلام من الناحية الدينية أما من الناحية العلمية، فقد ذكر أغلب الحيوانات التي عرفت في بيئته وذكر مميزات هذه الحيوانات فأعطانا بذلك نظرة شاملة عن علم الحيوان.

أما المراجع التي استند إليها الجاحظ فمن أهمها مباحث "أرسطو" و "جالينوس" و "أبي عبيدة"، و يظهر أن كتاب الحيوان هو آخر مصنف بدليل أنه يذكر فيه سائر كتبه بما فيها البخلاء.[1]

ب/ كتاب البيان والتبيين:« وضع الجاحظ هذا الكتاب الجليل و قدمه إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد، أحد عظماء الدولة العباسية، و أجازه القاضي عليه بخمسة آلاف دينار وزعم ياقوت أن الجاحظ وضع من هذا الكتاب نسختين كانت الثانية منهما أصح وأجود

و قد أجمع المتقدمون من أكابر العلماء، و أفاضل الأدباء على أنه من أفضل ما وضع في الأدب.

قال المسعودي: و للجاحظ كتب حسان، منها كتاب "البيان و التبيين" و هو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور و المنظوم، و غرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به».[2]

[1] – المرجع السابق، ص١٥.

[2] – حسن السندوبي، المرجع السابق، ص ١٢٥.

«أو قال ابن خلدون: سمعنا من شيوخنا في مجـالس التعليم أن أصولـه فـن الأدب و أركانه أربعة دواوين، و هي أدب الكاتب لابن قتيبة، و كتاب الكامل للمبرد، و كتاب البيان و التبيين للجاحظ، و كتاب النوادر لأبي علي القالي، و ما سوى هذه الأربعة فيتبع لها وفروع عنها.

وقد طبعت في القسطنطينية سنة ١٣٠١هـ بمطبعة الجوانب باسم خمس رسائل ضمنها كتاب منتخبات البيان و التبيين، و لم يذكر الناشر اسم من انتخبه».[١]

ولقد تناول فيه موضوعات عدة فتكلم فيه عن البيان والبلاغة والفصاحة، وذكر أسماء الخطباء والبلغاء والأنبياء، وعقد فيه الموازنات بين الشعراء والخطباء.

جـ/كتاب البخلاء:

« دراسة أدبية نقدية فكهة جمع فيها أبو عثمان أخبار البخلاء في عصره من أهل البصرة و خراسان بنوع خاص، و صور لنا نماذج حية ناطقة من أولئك الذين استهواهم الدرهم حتى العماية، فصاروا أضحوكة الناس و مدار تندرهم.

أما غايته من هذا الكتاب الطريف الذي لم يفقد طراوته على مر الزمان، فهي على ما يبدو سرد النوادر البخلاء و احتجاج الأشقياء، و تفسير قصدهم من تسمية البخل إصلاحا و الشح اقتصادا، و بيان نواياهم من جعل الجود سرفا و الأثرة جهلا، يلقي الجاحظ في هذا الكتاب أضواء كاشفة على بيئة عصره في شتى أنواع نواحيها، فكتاب "البخلاء" من هذا القبيل مرجع وثيق لدراسة المجتمع العباسي إبان ازدهار بغداد و البصرة و خراسان و خصوصا من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل».[٢]

---

[١] – المرجع السابق ، ص١٢٦.

[٢]– جميل جبر، المرجع السابق، ص ١٥.

لقد انتقد في هذا الكتاب شريحة من مجتمعه، فصور لنا البخل في ذلك العصر وظهر فيه أسلوبه الساخر المتهكم من تصرفاتهم وسلوكاتهم، فذكر فيه شخصيات عرفت بالبخل مع ذكر أسمائها.

د/ كتاب الزرع والزيتون والأعناب:

« وضع الجاحظ هذا الكتاب و قدمه إلى "إبراهيم بن العباس الصولي" رئيس ديوان الرسائل في عهد المأمون، فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار».[1]

و/كتاب فضيلة المعتزلة:

« ذكر هذا الكتاب "أبو الحسين الخياط" في كتاب الانتصار، و لعله هو بعينه الكتاب المسمى"الاعتزال و فضله"، و قد رد عليه ابن الرواندي بكتاب "فضيحة المعتزلة»".[2]

هـ/كتاب فضيلة الكلام:

أشار إليه ابن النديم، و قيل لأبي بكر الرازي"كتاب مناقضة الجاحظ في كتابه في فضيلة الكلام" و قال المسعودي قال الجاحظ في كتابه"تفضيل صنعة الكلام" و هي الرسالة المعروفة "بالهاشمية".[3]

فلبعض كتبه عدة أسماء. « رسالة في مناقب الترك و عامة جند الخلافة: وضع الجاحظ هذه الرسالة و قدمها إلى "الفتح ابن خاقان" وزير المتوكل، طبعت هي و رسالة التربيع و التدوير، و رسالة فخر السودان على البيضان، ثم عثر على نسخة منها "إبراهيم بك المويلحي" بالأستانة و نشرها في جريدته "مصباح الشرق" ثم نشرت بالطبع ضمن مجموعة رسائل بمصر سنة ١٣٢٤هـ».[4]

---

[1]– حسن السندوبي ،المرجع السابق ،ص ١٣٣.

[2]– المرجع نفسه، ص١٣٧.

[3]- المرجع نفسه، ص ١٣٨ .

[4] – المرجع نفسه، ص ١٤٢.

و هناك رسائل كثيرة نسبت إلى الجاحظ، لكن نسبتها تثير بعض الشك، فلا يمكن لنا نعرف أن كانت له أم أنها نسبت إليه حتى تلقى رواجا ويذاع صيتها« ككتاب التاج مثلا، و كان من الشائع في ذلك الزمان أن ينسب كتاب ما إلى أديب معروف قصد ترويجه، و قد لجأ الجاحظ نفسه إلى هذه الطريقة في أول عهده الكتابي»[1]. تعد كتب الجاحظ من أهم المصنفات التي يمكن قراءتها والبحث عنها نظرا لما فيها من تعدد وتنوع في الموضوعات.

٢- جوانب من حياة طه حسين:

طه حسين الرجل الذي تحدى العاهة، وواصل تعليمه على الرغم من الصعاب، لقد بلغت شهرته الأفاق حتى لقب بعميد الأدب العربي، وقبل أن نبدأ في الحديث عن حياته نعرج على الأوضاع السياسية والثقافية التي كانت سائدة في عصره.

أ- صورة عصر طه حسين:

وطه حسين كغيره من الأدباء سواء كانوا شعراء أو كتابا أو نقاد يتأثرون بالعصر والبيئة التي عاشوا فيها، فقد تأثر بالأوضاع السياسية والثقافية السائدة آنذاك وكان لها تأثير كبير في أدبه.

أ١- سياسيا:

إن طه حسين هو أصدق صورة عن عصره، فهو عصر ارتطمت فيه التيارات فكرية ووجدانية عارمة، وكانت مصر تبحث فيه عن كيانها.

شهد العصر الذي عاش طه حسين في كنفه العديد من الأحزاب السياسية و الوطنية و أبرزها «حزب شهد فيه طه حسين، سلسلة من الأحداث التي كان لها أبعد الأثر في حياته و فكره و أدبه، و لم يعرف عن طه حسين أنه مال لأحد من الحكام، ولا وقف موقف

[1] - جميل جبر، المرجع السابق، ص١٧.

المعارضة الصريحة منه، وعلى صعيد الحركات التحررية والدينية والوطنية، فقد عانت مصر في العقود الأولى من القرن العشرين من النفوذ العثماني و الاحتلال البريطاني عاين طه حسين نتائج ثورة عرابي الوطنية، والتي كانت أعلنت في وجه النفوذ البريطاني سنة ١٨٨٢م».[١]

«ودعوة كل من "جمال الدين الأفغاني" و "محمد عبده" الإصلاحية و الدينية، و ثورة رجال "تركيا الفتاة" الدستورية و الوطنية سنة ١٩٠٨م و توالت الأحداث إلى أن تولى "أنور السادات" مقاليد السلطة».[٢]

لقد شهد "طه حسين" الاحتلال البريطاني لبلاده والذي سيكون له ومن دون شك تأثير كبير على أدبه.

أما على الصعيد الحزبي و السياسي فقد عاش "طه حسين" في كنف العديد من الأحزاب السياسية و الوطنية « و أبرزها الوفد الذي أسسه سعد زغلول، و الحزب الوطني بزعامة "مصطفى كامل" الذي أسسه سنة ١٩٠٧م، و حزب الأحرار الدستوريين و قد شارك "طه حسين" في أنشطة أعضائه الصحفية و السياسية، و كتب في صحيفته "السياسة" و كان يرأسها "محمد حسين هيكل"».[٣]

أ٢- ثقافيا:

عرفت مصر على الصعيد الثقافي ازدهارا على جميع الأصعدة في النقد والشعر والمسرح كما ظهر خلال هذه الفترة عدة أدباء وشعراء ذاع صيتهم ولاح في الأفق فهذه الفترة إذا، والتي عاش فيها طه حسين تعتبر «من أغنى الحقب المصرية نظرا لما عرفته من تطور في اللغة و الأدب و الشعر و الفكر و النقد، و العلوم، و التمثيل و المسرح

[١] – يحي شامي، طه حسين مؤلفا و ناقدا، ص ٧.

[٢] – المرجع نفسه، ص٨.

[٣] – المرجع نفسه، ص٩.

و الصحافة، و هي حقبة توج بها عصر النهضة و لمع فيها العمالقة من كبار الأدباء و الشعراء و النقاد و القصاص و الروائيين و المسرحيين و من أبعدهم صيتا كلا من "عبد الرحمان الكواكبي" "قاسم أمين" "جرجي زيدان"،"المنفلوطي" و "المازني" و غيرهم».[1]

ومن الجدير بالذكر أن "طه حسين" عاصر في مجال الشعر، عددا من أبرز أعلامه و عمالقته نذكر منهم كلا من رائد النهضة الشعرية "محمود سامي البارودي"، "أحمد شوقي"، "حافظ إبراهيم" و "إسماعيل صبري"، "علي محمود طه"، "إبراهيم ناجي"، و "عبد الرحمان شكري" .....إلخ. [2]

إن الصحافة من أبرز عناصر النهضة والتطور، ولها صداها في الثقافة، وقد بلغت في هذه المرحلة تقدما وتطورا ملحوظا. «فهي من الشهرة و التقدم و الرقي و الاهتمام بالشؤون السياسية والاجتماعية و الفكرية و العلمية و الأدبية في مقام رفيع منها:

* " المقتطف" و مؤسسها "يعقوب صروف" و "فارس نمرو".

* " الأهرام" لمؤسسيها "سليم" و "بشارة"، و "المؤيد" "لعلي يوسف".

* "الهلال" "لجرجي زيدان".

* "الضياء" و "المنار" "لمحمد رشيد رضا".

* "الجريدة" "لأحمد لطفي السيد".

* "الأساس" و "المشكاة" و "منبر الإسلام" و غير ذلك...

و قد شارك "طه حسين" في العديد من هذه الصحف و المجلات بمقالاته الأدبية و النقدية الممتعة، و الاجتماعية، و السياسية و الثقافية».[3]

---

[1] – المرجع السابق، ص ١٠.

[2] – المرجع نفسه، ص١١.

[3] – المرجع نفسه ، ص١١.

فمن حسن حظه أنه عاش في فترة تطور في اللغة والأدب والفكر والنقد وحتى في مجال الصحافة، وعاصر الكثير من الأدباء والعلماء فكان لكل ذلك الأثر الايجابي على نتاجه العلمي.

ب- مولده ونشأته:

"طه حسين" عميد الأدب العربي، هو أديب ومفكر مصري ولد « سنة ١٨٨٩م من قرية في صعيد مصر على مقربة من مدينة مغاغة ، كان أبوه موظفا صغيرا في شركة زراعية من شركات السكر، أنجب أبناء كثيرين وكان "طه حسين" سابعهم».[١]

لقد فقد بصره في سن مبكرة لكنه بقوة إرادته وعزيمته قهر الظلام، فأثبت أن الإنسان لا يجب أن يوقفه عجزه بل يشكل حافزا للتغلب على الصعوبات التي يواجهها في حياته وهو بهذا يكون أحسن مثال لذوي الاحتياجات الخاصة للتغلب على أي شكل من أشكال الإعاقة، بل هو مثال للأصحاء أيضا في طموحه وإصراره.

جـ- طه حسين و أيام الصبا:

جـ١- في الكتاب:

لقد كانت بداية تلقيه العلم من الكتاب، حاله في ذلك حال أي طفل يعيش في الصعيد ما إن يكبر حتى يتصل بالكتاب ليحفظ القرآن الكريم ويتعلم إلى جانبه القراءة. فكان طه حسين منذ نعومة أظافره «يحب فن الاستماع إلى القصص و الأحاديث و كان أبوه، و طائفة من أصحابه يحبون قراءة القصص و الفتوح، و أخبار عنترة و الظاهر بيبرس، و أخبار الأنبياء والنساك و الصالحين وهكذا تعلم حسن الاستماع»[٢].

[١] – شوقي ضيف الأدب العربي المعاصر، ص٢٧٦.

[٢] –المرجع نفسه، ص٢٧٦.

و والده كغيره من أهل القرى سيبعث بابنه للكتاب لأنه يرى بأنها الوسيلة الأفضل لتلقي العلوم فهم يقدسون الكتاب ويحترمون مشايخه. « و لكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن، و لا كيف بدأه، منها ما يضحكه الآن، و منها ما يحزنه يذكر أوقاتا كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولا على كتف أحد أخويه لأن الكتاب كان بعيدا، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشيا تلك المسافة، و ليس غريبا أن ينسى صاحبنا كيف حفظ القرآن، فقد أتم حفظ القرآن و لم يتم التاسعة من عمره، وهو يذكر في وضوح وجلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن ذلك أن معلمه كان يتحدث إليه من قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن و عن أن أباه سيبتهج به».[1]

حفظ القرآن في سن مبكرة، بالرغم من كونه كفيفا فقد اعتمد على السماع في الحفظ وبحفظه هذا أصبح شيخا، وإن لم يتجاوز التاسعة من عمره، لأن كل من حفظ القرآن في ذلك الوقت يعتبر شيخا، وكان معلم الكتاب يدعوه بالشيخ أمام والديه وماعدا ذلك كان يدعوه باسمه، لم يكن فيه وقار الشيوخ فقد كان صبيا قصيرا ونحيفا، أعجب في البداية بهذا الاسم

لكنه انتظر الأكثر، تمنى أن يلبس الجبة كباقي الشيوخ، وكان من الصعب أن يفهم أنه لا يزال صغيرا على هذا الأمر.

وبعد أيام مل وسئم من هذا الاسم، لأنه لم يجلب له التكريم فشعر بأن الحياة مليئة بالظلم، أصبح ذهابه للكتاب لمجرد اللعب، لأن معلمه أهمله في هذه الفترة ليهتم بالذين لم يتموا الحفظ بعد[2].

ولكن أباه اكتشف بأنه نسي، فأعاد الصبي حفظه مرة ثانية، واستظهره على والده فدعاه معلمه بلقب الشيخ وقال له: أما اليوم فأنت تستحق أن تدعى شيخا فقد رفعت

[1] – طه حسين الأيام ٣١/١ .

[2] – المصدر نفسه،ص٣٢.

رأسي، وبيضت وجهي، فقد كنت تتلو كسلاسل الذهب، وكنت أحضنك بالحي القيوم الذي لا ينام حتى انتهى الامتحان وأنا أعفيك اليوم من القراءة[1].

و هكذا فقد اكتسب "طه حسين" من دخوله الكتاب، مبادئ العربية و الحساب و تلاوة القرآن و حفظه، فحفظه في مدة قصيرة أذهلت أساتذته وأترابه و والده.

جـ ٢- في الأزهر:

وبعد تلقيه المبادئ الأولية في الكتاب، انتقل إلى الأزهر ليكمل تعليمه، ويتفتح ذهنه على المزيد من العلوم ولكن واجهته مشكلة كبيرة هي أساتذته الذين يدرسون بطريقة تقليدية لم ترق له، مما أدى به إلى الدخول في مشاكل معهم فأدى فضوله لفهم الأمور إلى تعميق الهوة بينه وبين أساتذة الأزهر. في سنة ١٩٠٢م دخل "طه حسين" الأزهر للدراسة

الدينية، والاستزادة من علوم العربية وفي الحقيقة أن التحاقه بالأزهر كانت رغبة أبيه الذي طالما حلم بأن يراه من علماء الأزهر[2]

حيث كان يقول دائما:"... أنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا، و أراك من علماء الأزهر، قد جلست إلى أحد أعمدته و من حولك حلقة واسعة بعيدة المدى"[3]. لقد سمع ذلك من والده لكنه لم يعرف أيصدق أم يكذب، وترك ذلك للأيام حتى تكشف له الحقيقة، لقد ذهب فعلا إلى القاهرة مع أخيه، والتحق حقا بالأزهر فصدق وعد أبيه[4].

لقد بقي طه حسين أربعة أعوام في الأزهر، ولكنه كان يعدها أربعين سنة لأنها طالت عليه وكأنها الليل المظلم، لم يكن سبب يأسه آنذاك الفقر والحرمان فهو أمر مألوف اشترك

---

[1] – المصدر السابق، ص ٤٤.

[2] –المصدر نفسه ، ص ١١١.

[3] – المصدر نفسه، ص ١١٢.

[4] – المصدر نفسه، ص ١١٣.

فيه مع أقرانه فهذه البلية خفت لأنها عمت، فالذي كان يؤرقه فعلا هو الملل الذي كان يتلقاه من الحياة المطردة المتشابهة[1].

وفي الحقيقة لم تكن هذه حاله في البداية فقد كان مبتهجا بالتحاقه به ويظهر ذلك من خلال قوله:

وكم كان مبتهجا حين خلع نعليه عند باب المسجد.... وكم كان سعيدا حين أخذ مكانه في الحلقة على هذا البساط إلى جانب عمود من الرخام .[2]

وسواء أعجبه الأمر أم لم يعجبه فقد أقبل طه حسين على دروس الأزهر فأمعن في النحو والمنطق ومبادئ الفقه، وأحسن الفنقلة والذي كان يتنافس فيه البارعون من طلاب العلم في الأزهر على المنهج القديم

وهكذا كانت حياته متشابهة لاتحتوي على شيء جديد منذ أن يبدأ العام الدراسي فتمر الأيام وكأنها نفس اليوم، فيبدأ بدرس التوحيد بعد أن يصلي الفجر، وبعد أن تشرق الشمس ينطلق إلى درس الفقه، ودرس في النحو بعد أن يرتفع الضحى، ويعود من جديد إلى درس.[3] النحو، ثم فراغ إلى أن يصلي المغرب فيذهب إلى درس المنطق، وكل هذه الدروس كان تتضمن كلاما معاد أو أحاديث لا تمس قلبه و لا عقله، لقد تربت لديه تلك الملكة فقد أصبح قادرا على أن يفهم ما يكرره الشيوخ من غير طائل.[4]

لم يكتفي "طه حسين" بالدرس في الأزهر، بل تنقل بين حلقات العلم الأخرى، فذهب إلى مساجد عدة ليستقي من علومهم و يأخذ عن شيوخهم و أساتذتهم« و كان يحضر الدرس الأول في الأزهر، والدرس الثاني في مسجد محمد بك أبي الذهب و الدرس الثالث في مسجد

[1] – طه حسين، مذكرات طه حسين، ص٧.
[2] – طه حسين ، الأيام ١١٥/١.
[3] – المصدر نفسه ، ص ١١٦.
[4] – طه حسين، مذكرات طه حسين، ص٨.

الشيخ العدوي على أستاذ من سلالة الشيخ العدوي نفسه و ربما ألم بدرس من دروس الضحى كان يقرأ فيه كتاب قطر الندى لابن هشام»[1].

و لقد كانت فترة إقامته في الأزهر فترة دقيقة، فكان يوزع وقته بين الحلقات يختار منها ما يفضل و يعرض عن بعضها و لا يعرف الاستقرار في أيها إلا حلقة الأدب و الشعر و لذلك فقد كانت ثقافته في العلوم الإسلامية قاصرة بحيث لم يتمكن من تكوين فكرة كاملة عن الإسلام، و لقد عرف طه حسين في الأزهر دروس الأدب و لم يقبل على دروس الفقه و العقائد، و قد اتصل بدروس الفقه و المنطق و التوحيد و النحو و لكنه ألم بذلك إلماما سريعا حتى توقف عن درس الأدب و سرعان ما ضاق صدره بالأساتذة لأنه لم يصبر على فهم دقائق المسائل و ظل الخلاف يتسع بينه و بين مشايخه حتى أغلق الباب بينه و بينهم، و لقد ساء ظنه بالأزهر و شيوخه، الذين أعرضوا عنه لسوء بادرته و جفوته لهم و قد تأثر بالمستشرقين في الغض من شأن المشايخ و إحراجهم بالأسئلة المضللة و الرد عليهم في عنف و سخرية، و سوء موقفه من أساتذته واضح في أكثر من صورة و حادثة و من الحوادث التي ذكرها في كتابه الأيام: الحادثة التي وقعت له مع أستاذ النحو فقد استبدل الأستاذ بأستاذ آخر، وقد كان شيخا ضرير و لكن الطلاب لم يجدوا عنده وداعة أستاذهم القديم و لا عذوبة صوته و مضى في تقديم دروسه و لم يكد يتقدم في درسه الرابع حتى كان بينه و بين طه حسين قصة صرفت الغلام عن النحو صرفا.[2]

و مضمون هذه القصة هي« تفسير الشيخ لقول تأبط شرا: فأبت إلى فهم و ما كدت آئبا. وكم مثلها فارقتها و هي تصفر فلما وصل إلى قوله "تصفر" قال: إن العرب كانت إذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة وضعوا أصابعهم في أفواههم و نفخوا فيها فكان لها صفير يسمع.

[1] – طه حسين، الأيام ١٣١/٢.

[2] – المصدر نفسه ، ص ١٣٤.

قال الغلام للشيخ: و إذن فما مرجع الضمير في قوله"وهي تصفر؟" و في قوله"وكم مثلها فارقتها؟"قال الشيخ مرجعه "فهم" أيها الغبي قال الغلام: فإنه قد عاد إلى فهم و البيت لا يستقيم على هذا التفسير. قال الشيخ: فإنك وقح و قد كان يكفي أن تكون غبيا، قال الغلام: و لكن هذا لا يدل على مرجع الضمير، فسكت الشيخ لحظة ثم قال:"انصرفوا، فلن أستطيع أن أقرا و فيكم هذا الوقح". و لم يعد الغلام إلى درس النحو بل لم يحضر الغلام بعد ذلك درسا في النحو»[١].

وإذا كان الأزهر بالنسبة له عقيم المنهج، يمتاز بالرتابة وعدم اطلاع أساتذته، وعدم تطور المشايخ، إضافة إلى طرق التدريس التقليدية والمنغلقة، لكن على الرغم من كل هذا فقد تحصل في الأزهر على ما تيسر من الثقافة، و نال شهادته التي تخوله التخصص في الجامعة.

و قد أعلن الدكتور طه حسين عن الأسباب الحقيقة التي جعلته يغادر الأزهر في عدد نوفمبر١٩٢٧م من "الهلال" فقال: « بينما كنا نقرأ كتاب الكامل للمبرد وردت هذه العبارة " و مما كفر" الحجاج" به الفقهاء قوله: و الناس يطوفون بقبر النبي و منبره إنما يطوفون برمة و أعواد"فقلت أنا: إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب و بلغ قولي شيخ الأزهر و سمعت أنه سيطردني فذهبت إلى الجريدة أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع، و هناك تقابلت مع الأستاذ لطفي السيد فرفض المقال، و لكنه عرض أن يتوسط لإرجاعي، في ذلك الوقت شعرت بأن الأزهر لم يعد يشبع ما في نفسي من الأغراض الأدبية فتركته و التحقت بالجامعة المصرية»[٢].

فالسر في خروجه هومعارضته لأساتذته وجداله المستمر لهم في تفسير بعض الأمور في النحو واللغة والأدب مما أدخله في مشاكل معهم جعلته يترك الأزهر لأنه لا يحقق رغبته« يقول الأستاذ "حسين الشقر":"و منه إن السر في إخراج الدكتور طه من الأزهر عدم

[١] - المصدر السابق، ص ١٣٥.

[٢] – أنور الجندي، طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام، ص٢٣.

كفاية الأزهر لسد مطامعه الأدبية و هذا كذب صريح على التاريخ و جرأة مفضوحة على الحق و التاريخ يسجل بالخط العريض أن الدكتور تقدم للامتحان في الشهادة العالمية فلما جاء أمام اللجنة و سئل و نوقش أخفق إخفاقا لم يشهد التاريخ مثله فنكص على عقبه وخرج، و منذ ذلك الوقت أخذ يحارب الأزهر و يغض من قدر أساطين المسلمين»[1].

و أي يكن من الأمرين فإن طه حسين أخذ من علوم الأزهر، و انتقل إلى الجامعة ليستفيد من دروسها.

جـ٣- في الجامعة:

إن الجامعة بالنسبة لطه حسين بداية مرحلة جديدة في تلقي العلوم وتثقيف النفس وتعتبر نقطة تحول، فقد انتقل من الأزهر الذي لم يحبذه كثيرا بسبب عقم المنهج وطريقة التدريس البدائية-على حد قوله- إلى الجامعة التي وجد فيها عالما آخر يختلف كلية عما ألفه.

لقد ذكر اسم الجامعة فوقع من نفسه موقع الغرابة، فهو لم يعرف في حياته إلا الجامع وربما كان يمني النفس ويأمل أن تختلف عن الأزهر وعن طريقته التي لا تروقه ولكنه لم يلبث أن فهم كلمة الجامعة، فأدرك أن دروسها ستختلف عن الأزهر. بُشر الفتى بهذا النبأ و أدرك أن غمته ويأسه وحزنه سيكشف، ولكنه بقي في حيرة من أمره أتراها تقبله أم أنها سترفض وجوده ولن يجد إلا الأزهر سبيلا.[2]

لقد عاش مرارة الصراع فهل يا ترى سيبقى في الأزهر ليواصل معاناته أم أن الجامعة ستفتح له ذراعيها وتنقذه من مرارة ما عاشه في الأزهر، إلى أن بشّر بأن ذهابه إلى الجامعة واقع لا محالة، فملأ الأمل نفسه رضا وبهجة وسرورا.

---

[1] – المرجع السابق، ص ٢٤.

[2] – طه حسين، مذكرات طه حسين، ص٩.

سعى الفتى إلى الجامعة، و استمع لأول دروسها في الحضارة الإسلامية فراعه أول ما راعه شيء لم يكن له بمثله عهد في الأزهر، فهذا أحمد زكي بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التي لم يسمعها الفتى من قبل"أيها السادة: أحييكم بتحية الإسلام، فأقول: "السلام عليكم ورحمة الله". كما أن الأستاذ لم يقل في أول درسه: "قال المؤلف رحمه الله" وإنما استأنف الدرس يتكلم عن نفسه، و كان كلامه واضحا. ملك على الفتى قلبه و عقله[1].

لقد أعجب طه بالجامعة أيما إعجاب، أحس بأنها أضفت على معلوماته السابقة شيئا جديدا، فهي تختلف تماما عما ألفه في الأزهر، فلم يلمح فيها تلك الرتابة والملل، كما أن منهج التدريس وطريقة الأساتذة أفضل بكثير فقد لاقت استحسانا و إعجابا في قلب الفتى. و بقي طه حسين في الجامعة المصرية القديمة يزاول دراسته «منذ عام ١٩٠٨م إلى ١٩١٤م فتلقى فيها دروس العلوم العصرية، والحضارة الإسلامية، والتاريخ و الجغرافيا و عددا من اللغات الشرقية كالحبشية و العبرية و السريانية، وإن ظل يتردد خلال تلك الحقبة على حضور دروس الأزهر والمشاركة في ندواته اللغوية والدينية والإسلامية دأب على هذا العمل حتى سنة ١٩١٤م، وهي السنة التي نال فيها شهادة الدكتوراه وموضوع الأطروحة هو " ذكرى أبي العلاء" ما أثار ضجة في الأوساط الدينية المتزمتة وفي ندوة البرلمان المصري إذا اتهمه أحد أعضاء البرلمان بالمروق والزندقة والخروج على مبادئ الدين الحنيف»[2].

انتهى "طه حسين" من هذه المرحلة بحصوله على الدكتوراه التي كانت أول درجة دكتوراه تمنحها الجامعة المصرية، وحدثت حولها ضجة كبيرة، ولكن طموحه واجتهاده

[1] – طه حسين، الأيام ١٧٢/٢.

[2] – طه حسين، مذكرات طه حسين، ص١٣٠.

لإتمام دراسته في باريس.جعله يتابع تعليمه ففي العام نفسه أي في« عام ١٩١٤م أوفدته الجامعة المصرية إلى مونبيليه بفرنسا لمتابعة التخصص والاستزادة من فروع المعرفة والعلوم العصرية فدرس في جامعتها الفرنسية وآدابها، علم النفس والتاريخ الحديث، بقي هناك حتى سنة ١٩١٥م، سنة عودته إلى مصر فأقام فيها حوالي ثلاثة أشهر أثار خلالها معارك وخصومات متعددة محورها الفارق الكبير بين تدريس الأزهر وتدريس الجامعات الغربية ما حدا بالمسؤولين إلى اتخاذ قرار حرمانه من المنحة المعطاة له لتغطية نفقات دراسته في الخارج لكن تدخل السلطان حسين كامل حال دون تطبيق هذا القرار المتعسف فعاد إلى فرنسا من جديد لمتابعة التحصيل العلمي، ولكن في العاصمة باريس فدرس في جامعتها مختلف الاتجاهات العلمية في علم الاجتماع، والتاريخ اليوناني، والروماني والتاريخ الحديث وأخذ خلالها أطروحة الدكتوراه الثانية، وعنوانها:" الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون " كان ذلك سنة ١٩١٨م إضافة إلى إنجازه دبلوم الدراسات العليا في القانون الروماني، والنجاح فيه بدرجة الامتياز وفي غضون تلك الأعوام كان تزوج من سوزان بريسو، التي ساعدته على الاطلاع أكثر فأكثر بالفرنسية واللاتينية فتمكن من الثقافة الغربية إلى حد بعيد» .[١]

إذا كان لانتقال "طه حسين" من صعيد مصر إلى القاهرة، ومن الأزهر إلى الجامعة أثر واضح غير حياته وفكره وفتح له آفاق مستقبل زاهر، فإن انتقاله من جامعة القاهرة إلى جامعة مونبلييه، فباريس الأثر الأكبر تأثيرا على المستوى العلمي وحتى الشخصي، وقد كان سعيدا بانتقاله هذا منذ البداية، وأشار إلى هذا في قوله: «...كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم، فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظا من النجاح والتوفيق».[٢]

[١] –المصدر السابق، ص ١٢٧.
١ – المصدر نفسه، ص ١٣٠ .

د- ثقافة طه حسين:

تناول "طه حسين" المفكر الحر قضايا جريئة وقضايا مسكوت عنها التي مازلنا نخوض غمارها حتى أيامنا هذه من قضايا «الأصالة والمعاصرة، وكذا الموروث والمحدث ثم قضايا التنازع حول ثقافة النقل وحرية العقل إلى العلاقة بين الشرق والغرب وقضايا التجديد في الأدب والفكر.

إنه الأعمى البصير الذي برغم عاهته العمى التي قدر له أن يصاب بها طفلا استطاع منذ نعومة أظافره أن يرسم صورة لمن حوله دون أن يراهم ، معتمدا على حواسه الأخرى ومطلقا العنان لعقله ومخيلته للذهاب بعيدا حيث يريد.

لقد تكونت أصول حاسته الأدبية وشحذت في بيئته حيث حفظ شيئا من المتون وشيئا من ألفية بن مالك تأهبا للأزهر، ولما جاءه واختلف إلى أساتذته وعرف أصول النحو والصرف والاشتقاق، اكتملت عنده أداة الأديب.

هكذا كان "طه حسين"، فإذا جاء الأزهر انصرف عن الفقه والنحو، يقول "حلمي مرزوق " فانصرف عن الفقه والنحو والتوحيد وما شابههما من علوم الأزهر الأصلية... و لقد حاول أن يرجع باللوم في انصرافه عن هذه العلوم إلى شيوخ الأزهر وطرائق التعليم فيه"

ولكن الدكتور "حلمي مرزوق" يرى أن نزعته الأدبية وملكته الفطرية التي تتخذها هذه البيئة وكذا طبيعة التمرد التي شب عليها هي التي صرفته عن هذه العلوم والمتون إلى الأدب ودرسه». [1]

لم يحبذ "طه حسين" طرق التدريس في الأزهر، ولم يعجبه أسلوب مشايخه فانخرط في سلك الثائرين على دراسات الأزهر، حيث كان على رأسهم« الشيخ "سيد بن علي

[1] - محمد محمدي، مجلة المخبر ـ أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ،جامعة بسكرة الجزائر ، ص ٢٣٣.

المصرفي" الذي أكبر فيه نزعة التمرد وأعزاه بالثورة والنيل من جدواه وكان تأثره كبيرا بالشيخ المرصفي وصلته به محكمة، أصبح يسير على مذاهبه فصاغ أفكاره على منواله وأعطى نقده ذوقا على مثال ذوقه». [1]

يقول في هذا الصدد:" أستاذنا الجليل "سيد بن علي المرصفي" أصح من عرفت بمصر فقها في اللغة وأسلمهم ذوقا في النقد، وأصدقهم رأيا في الأدب، وأكثرهم رواية للشعر ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام .

ويقول في تحفته "الأيام" أنه عرف مع الشيخ السبيل إلى أمهات الكتب العربية القديمة التي لا تحسب في كتب الأزهر ولا كانت لطلبته وأساتذته من أمثال ديوان الحماسة ونهج البلاغة بشرح الإمام والكامل للمبرد ومقامات الحرير والهمذاني والمعلقات وغيرها.

ويذكر أن طه حسين جذبته إليها بيئات أخرى غير بيئة التجديد في الأزهر ولعل أولها الطرابيش وهي بيئة لطفي السيد وأتباعه ممن انتهجوا سبيل المدارس المدنية والعلوم الحديثة ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل حاول طه حسين تعلم الفرنسية عندما كانت الجامعة تفضل الإلمام باللغات الأجنبية، حيث انظم إلى المدرسة التي أنشأها الحزب الوطني بسعي من جاويش لإعداد بعثة أزهرية إلى أوروبا، بلغ عدد طلابها الأربعمائة وما يزيد

وكان في جملتهم "طه حسين".

هكذا جمع "طه حسين" بين القديم والجديد في الأزهر والجامعة، فجمع بين الأصالة في التكوين من الأزهر وبين مناهج البحث التي تلقاها على أيدي المشرفين من خلال محاضرات "كارلو نيللو" من تاريخ الأدب العربي في العصر الأموي وفيما كان يلقيه "سانتلانا" من محاضرات عن الفلسفة الإسلامية وغيرها[2] .

[1] ـ المرجع السابق ص ٢٣٣
[2] ـ المرجع نفسه ، ص٢٣٣.

ولم يكن "طه حسين" عقلا بسيطا في حياته فقد جسد ثورة العقل العربي على القديم المقدس كانت هذه الثورة عنيفة على الثقافة العربية فلم يستطيع الذهن العربي تقبله وترجمة ما جاء به وما قدمه، ذلك أن فكره كان مزيجا بين ثقافتي الغرب والشرق حيث تلقى تعليمه العالي في مصر وفرنسا.[1]

إن الثقافة التي استقاها من مشارب مختلفة ومتعددة ساهمت في تنوع إنتاجه الفكري.

هـ- أهم المؤثرات في شخصية طه حسين:

هـ١- فقدانه للبصر:

غادر النور عينيه منذ صغره، ولكنه لم يبق أسيرا للظلام ولم يستسلم لليأس، فعشقه للعلم جعله يتحدى الصعاب، ويحقق أحلامه، فالعاهة لم تكن عائقا بالنسبة له بل كانت حافزا على الرغم من الألم والحرمان الذي رافقه طول حياته« فمنذ نشأة طه حسين، وهو يشعر بأن له بين إخوته مكانا خاصا يمتاز عنهم، كان يحس من أمه رأفة ورحمة، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا، وكان يشعر من إخوته بشيء من الاحتياط في تحدثهم إليه ومعاملتهم له»[2].

وكان اهتمام والديه الزائد يقلقه واحتياط إخوته وأخواته يؤذيه، ربما لأنه لا يحب أن يحس أحد بالشفقة عليه حتى وإن كان من المقربين لأنه لا يحب أن يشعر بالضعف، فهذا الاهتمام يجد فيه شيئا من الإشفاق مشوبا بشيء من الازدراء على أنه لم يلبث أن يتبين سبب هذا كله، فقد أحسن أن لغيره من الناس فضلا عليه وأن إخوته وأخواته يستطيعون مالا يستطيع، وأحس أن أمه تأذن لإخوانه وأخواته في أشياء تحظرها عليه وكان ذلك يحفظه ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزن صامت عميق ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به، فعلم أنهم يرون ما لا يرى[3]..

---

[1] – المرجع السابق، ص ٢٣٤

[2] – طه حسين، الأيام ص ١٤.

[3] – المصدر نفسه،ص ١٤.

لقد كان ميالا لاستكشاف ما لا يعلم، وكان ذلك يكلفه كثيرا من الألم والعناء ولكن حادثة واحدة حدت ميله إلى الاستطلاع، وملأت قلبه حياة لم يفارقه، كان جالسا للعشاء فخطر له خاطر غريب فما الذي يقع له لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذي يمنعه من التجربة؟

لاشيء وإذا فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطبق المشترك.

ثم رفعها إلى فمه، فأما إخوته فأغرقوا في الضحك وأما أمه فأجهشت بالبكاء وأما أبوه فقال في صوت هادئ حزين:" ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بني[١].

منذ ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والإشفاق والحياء ومنذ ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية، هذه الحادثة أعانته على أن يفهم حقا ما يتحدث به الرواة عن أبي العلاء من أنه أكل ذات يوما دبسا فسقط على صدره فنبهه تلاميذه، ومنذ ذلك الحين حرم على نفسه الدبس طوال الحياة.

وأعانته هذه الحادثة على أن يفهم طورا من أطوار أبي العلاء حق الفهم، لقد حرم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شيء، إلا ما يكلفه العناء، وانصرافه عن هذا العبث حبب إليه ألوانا من ألوان اللهو، هو الاستماع إلى القصص والأحاديث وهكذا تعلم فن الاستماع [٢].

فتأثره بأبي العلاء ظهر منذ صغره لأنه كان يعزي نفسه بهذا الشبه بينهما وربما يرى فيه القدوة التي ساعدته على تخطي المحن وأدرك من خلاله بأن العمى عاهة يمكن أن تقهر، ويمكن التغلب عليها والمضي قدما لتحقيق أهدافه.

[١] – المصدر السابق، ص ١٥.

[٢] – المصدر نفسه، ص١٦.

هـ٢- رحلته إلى أوربا وأثرها:

بعد أن أتم طه دراسته في الجامعة المصرية إتجه إلى الجامعة الفرنسية وعندما وصل طه حسين إلى أوربا واستقر في فرنسا طالبا بالجامعة، أقبل على الدراسة التي تؤهله لأن يكون عالما في واحد من تلك العلوم التي تدرسها الجامعات الأوروبية فاختار التاريخ القديم وتاريخ اليونان واللاتينيين، ولكنه كان عليه قبل ذلك أن يحصل على شهادة " الليسانس" الفرنسية،فاتصل بأخطر المؤسسات و كانت "الكوليج دي فرانس" هي المصنع الذي يعدون فيه رجال الشرق ويبثون سمومهم فيهم، من أجل إعدادهم لخدمة الثقافة الغربية وقد مر بها كثيرون من العرب واستطاعوا النجاة من تبعيتها.

وقد كان هناك صراع عنيف بين الثقافتين واللغتين: الفرنسية والإنجليزية، لذلك فإن احتضان مجموعة من المثقفين المصريين كانت أمرا بالغ الأهمية في نظر السياسة الفرنسية، وكانت وزارة الخارجية قد جندت مجموعة من "المشرقين" للعمل في ميدان الجامعات لهذا الغرض.[١]

اندمج طه حسين ضمن المخططات وأوغل في هذه التيارات متقبلا لها، محبا لها « فهو بطبيعته الطموحة إلى التبريز والشهرة وتأكيد الذات نتيجة عاهته قد مضى شوطا ومع الآمال المعلقة التي يثيرها الجو العلمي حوله في الجامعة والجو الاجتماعي حوله في محيط الأسرة.

كما كان للرحلة إلى أوروبا أثرها البعيد والعميق في التكوين الثقافي والاجتماعي لطه حسين حتى يمكن أن يقال إنها خلقته جديدا، وأسلمته ولاء جديدا ظل مؤمنا به مدافعا عنه إلى أن غرغت روحه، وبالرغم من أن الكثير من أصدقائه تغير إلا أنه لم يتغير وظل ثابتا على منهجه ومذهبه كأنما كانت هناك قوة تحرسه من أن يعود إلى الأصالة كما عاد أصدقاؤه»[٢].

---

[١] – أنور الجندي، المرجع السابق، ص ٢٨.

[٢] – المرجع نفسه، ص ٣٠.

ولقد أنتجت الرحلة إلى أوروبا أثارا متعددة أهمها:

١/ الاتصال بيئات الاستشراق ، وقد بلغ الدكتور طه في هذا الاتجاه مبلغا جعل بعض الناس يظنون أنه واحد من المستشرقين.

٢/ الإعجاب بفرنسا والولاء لها، وهو إعجاب وولاء كان يصل به إلى أن يرجح كفتها على حقوق أمتنا ويقف مع فرنسا مدافعا بينما تضرب بقنابلها دمشق ويهاجم المجاهدين في المغرب ويصفهم بالبداوة.

٣/ التأثر الشديد بثقافة الثورة الفرنسية ومطامعها ، بينما الثورة الفرنسية هي عمل اليهودية العالمية للسيطرة على المجتمع الأوروبي والفكر الغربي، ويبدو ذلك واضحا في إعجابه بفولتير و"ديدرو" و"روسو" وغيرهم.

٤/ اتساع الخصومة مع الفكر الإسلامي والأزهر، وذلك من طبيعة الأمور حتى لم يدع ميدانا للإسلام فيه رأي إلا قال فيه رأي الاستشراق، وأثار شبهاته ودفع الناس دفعا إلى الدخول في بوتقة التغريب وقد بلغ ذلك أقصى مدى حين دعا إلى الأخذ بالحضارة الأوروبية خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحمد منها وما يعاب.

٥/ بعث الأدب الشعوبي والفكر الباطني والوثني والمجوسي القديم وذلك من طبيعة الهدف الذي حمل اللواء ومن شأن الأمانة التي حملها للتغريب والغزو الثقافي[١].

هـ٣- زواجه من سوزان :

سافر "طه حسين" من أجل مواصلة دراسته، وليحصل شهادة الليسانس الفرنسية فوقع في حب فتاة فرنسية« فقد أتاحت له الأقدار تلك الفرصة التي كان لها أبعد الأثر في تحقيق غايته، وهي الاتصال بالأسرة الفرنسية التي نزل عندها بما ربط بينه وبين زميلته في الجامعة برباط الصداقة الذي انتهى إلى الزواج فقد أعانه هذا اللقاء على اقتحام ذلك الجو العلمي.

[١] – المرجع السابق، ص ٣١.

وكان له أثره الواضح في الخط الذي قبل به طه حسين وعمل له فقد كان هناك ذلك القس الذي دافع عن خطبته بعد أن اعترضت عليها عائلة الفتاة واستطاع أن ينتصر له ويحقق به ذلك الأمل الذي كان يعده هو انتصار له ولفرنسا وللفكر الغربي».[1]

لقد تعرف على هذه الفتاة حينما كانت تقرأ الكتب على مسامعه، فأعجب بها وأراد أن يتزوجها، ولكن كيف لفتاة فرنسية أن تتزوج من رجل عربي مسلم فليس من السهل أن تصحب رجلا كفيفا يختلف عنها في الثقافة والدين، حتى سميت قصته بالحب المستحيل ولكن هذه القصة فاقت كل التوقعات فقد ارتبطا،ونجد زوجته سوزان نفسها تحكي عن حياتها مع طه حسين في كتابها " معك" الذي يحكي عن ستين عاما من الحب والثقافة بين فرنسا ومصر، سوزان طه حسين سوزان بيرسو، إنها المرأة الفرنسية التي بادلت الكاتب والمفكر المصري، الحب الذي يطالعنا عادة في روايات العشق الكبيرة في التاريخ، بدأت الحكاية عندما كانت تقرأ له كتابا بالفرنسية، كما كانت تقرأ له الأشعار واستطاع من خلالها أن يتعلم الفرنسية واللاتينية، وهكذا توطدت العلاقة بينهما لتصبح حبا، لكن عائلتها رفضت فكرة زواجها من رجل أعمى، وفوق ذلك كله فهو مسلم،فجاءها الدعم من عمها، وكان كاهنا ومثقفا أكاديميا، كما تروي سوزان في كتابها عن الدور الذي لعبته في إخراجه من عزلته وإطلاق العنان لطاقاته الإبداعية، فكانت بمثابة عينيه اللتان يبصر بهما كما أن زواجهما هو تزاوج للثقافتين العربية والغربية وفي عام ١٩٢٠م عين طه حسين أستاذا في الجامعة فأدخل في مناهجها تعليم التاريخ اليوناني والروماني، وكان ذلك أشبه بثورة في النظام التعليمي آنذاك، ومنذ ذلك التاريخ وبسبب فكره التنويري والطليعي، واجه الكثير من الخصوم داخل الجامعة وخارجها، وهو في موازاة عمله أستاذا جامعيا كان يكتب في عدد[2]

[1] – المرجع السابق، ص٢٩.

[2] – مجلة آفاق المستقبل، أبريل–مايو–يونيو العدد ١٤ ص ٧٨.

من الصحف، وفي تلك المرحلة أصدر كتابه "في الشعر الجاهلي" وكان من الكتب التي هزت الرأي العام في مصر لما احتواه من أفكار جديدة لم تعهدها الثقافة المصرية من قبل.[١]

إن زواج طه حسين من فتاة فرنسية كان له التأثير الكبير على ثقافته، فقد أعجب بثقافة الغرب وأصبح من أشد المدافعين عنها.

هـ ٤- تأثره بأبي العلاء:

علاقة "طه حسين" مع "المعري"، علاقة أرواح تلاقت وتشابهت رغم اختلاف الزمان علاقة شخص بأبيه الروحي وقد أعلن طه حسين في أكثر من مناسبة أنه الوريث الشرعي والفكري لأبي العلاء، بل وجعل كتاب أبي العلاء المعري رسالة الغفران مدخلا لرسالته في الحصول على شهادة الدكتوراه.

ربما كان تأثر "طه حسين" بأبي العلاء عائد إلى العاهة التي جمعتهما فكلاهما تجرع مرارة فقدان البصر، وطه حسين منذ صغره كان يتخذه مثلا أعلى لأنه يأخذ منه تلك القوة فيتحدى العاهة، فنجده يدافع عنه بنوع من الشفقة في كتابه " تجديد ذكرى أبي العلاء "فيقول:" والمكفوف إذا جالس المبصرين أعزل، وإن بزهم بأدبه وعلمه وفاقهم في ذكائه وفطنته فقد يتندرون عليه بإشارات الأيدي، وغمز الألحاظ وهز الرؤوس وهو عن كل غافل محجوب وليس من ذلك إلا ألم يكتمه وحزن يخفيه... "[٢]

كما ذكر "طه حسين" في كتابه "تجديد ذكرى أبي العلاء"« أنه ثمرة من ثمرات عصره، قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان، والحال السياسية والاجتماعية، بل والحال الاقتصادية، أما الدين فإنه أظهر أثرا من أن يشير إليه، فالرجل لم يترك طائفة من الطوائف

[١] – المرجع السابق، ص ٧٨.

[٢] – طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ٢٨٠.

في عصره فقد هاج اليهود والنصارى وناظر البوذيين والمجوس، واعتراض على المسلمين وجادل الفلاسفة والمتكلمين، وذم الصوفية، وقدح في الأمراء والملوك وأصحاب النسك»[1].

و نجد "طه حسين" في مقدمة كتابه "مع أبي العلاء في سجنه" يمدح ويثني على "أبي العلاء" فيقول« لن يكون هذا إلا نحوا من حديث النفس تعرض فيه كما تريد ذكرياتي والآراء المختلفة التي كونتها لنفسي في شخص ممتاز شاذ، فنان عظيم، قاس قوي الإرادة قبل كل شيء، له ذكاء نادر يقظ دقيق قلق، يخفي من وراء الآراء المطلقة والأحكام الصارمة لا أدري أي شك في نفسه، وأي يأس من إرضائها شعور شديد المرارة عظيم الشرف، كان يثيره في نفسه علمه الدقيق بأساتذة الفن، وتهالكه على ما كان يزعم لهم من أسرار النبوغ وما كان يحضر ذهنه دائما من ألوان تفوقهم المتناقضة»[2].

لم يكن يرى في الفن إلا نوع من« مسائل الرياضة أدق وألطف من الرياضة المألوفة لم يستطع أحد أن يردها إلى الوضوح، ولا يستطيع إلا قليل جدا من الناس أن يفترضوا وجودها. كان كثيرا ما يتحدث عن الفن العالم، وكان يقول إن صورة من الصور نتيجة لطائفة من أعمال العقل».[3]

كما ذكر "طه حسين" في كتابه أبي العلاء« إن من أظهر آراء أبي العلاء في الفلسفة الجبر ومن قوله في الجبر :

المَرءُ يُقدمُ دُنيَاهُ عَلَى خَطَر بالكُره منهُ وَيَنآهَا عَلىَ سَخَط

يُخيطُ إثمًا إلى إثم فَيلبسُهُ كَأنَّ مُفرقَهُ بالشَّيب منهَا كَارها[4]

فهو يثبت أن الإنسان يدخل هذه الدنيا كارها ويخرج منها كارها.

---

[1] – المرجع، السابق، ص ٢٨١.

[2] – طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، ص ٧–٨.

[3] – طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء . ص٢٨١.

[4] – المرجع نفسه .،ص٢٨١.

ثم يقول: لم يبق شك في أن روح أبي العلاء في الفلسفة الإلهية جبرية،فهو جبري لا يعرف الاختيار ولا يطمئن إليه.ثم ينجر طه حسين وراءه ويقول:" الجبر قديم عند الفلاسفة وكثير من أهل الديانات، ومصدر الإيمان به شيئان أحدهما أن الاختيار لا يتفق مع القول بأن هذا العالم مبني في حركاته الاجتماعية والفردية للإنسان وغير الإنسان على العلل والأسباب ، وأن كل شيء في هذه الحياة إنما هو نتيجة لشيء كان قبله، ومقدمة لشيء يأتي بعده والمصدر الثاني من مصادر الجبر الإيمان بشمول القدرة والعلم الإلهيين، فإن شمول القدرة يقتضي ألا يكون في هذا العالم شيء إلا إذا تعلقت به قدرة الله»[١].

قال: « فهذا الكلام يدل على أن "أبا العلاء" حين رأى الجبر لم يفرق بين الإنسان وبين غيره مما اشتمل عليه هذا العالم ولكنه لو بسط سلطان الجبر قليلا لعرف أن ما ينال الإنسان من مدح أو ذم، من إحسان أو إساءة، ليس في حقيقة الأمر اختياري وإنما هو جبري».[٢]

ويتضح من كل هذا أن "طه حسين" يميل إلى الجبر وقد يكون متأثرا بأبي العلاء وكيف لا يكون متأثرا به وهو أشد المعجبين به كما ذكرنا سابقا.

و – مسيرته العملية وفاته وآثاره:

و ١ – مسيرته العملية:

شغل "طه حسين" مناصب عدة، خاصة في مجال التعليم « بدأ أستاذا للتاريخ القديم وتاريخ الأدب العربي، عين عميدا لكلية الآداب في جامعة القاهرة، ثم مستشارا فنيا في وزارة المعارف ومديرا لجامعة الإسكندرية وأخيرا وزيرا للمعارف عام ١٩٥٠– ١٩٥٢ م ومنها قرر مجانية التعليم الثانوي، وأنشأ جامعة عين شمس »[٣].

---

١ – المرجع السابق ،ص ٢٨٣.

٢ – المرجع نفسه، ص٢٨٤.

٢– محمد محمود البارودي ،عمالقة الأدب العربي المعاصر ،ص ٦٢.

إضافة إلى انتمائه لعدة هيئات، وانخراطه في عدة نواد.

* الهيئات التي ينتمي إليها: « المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وكان مقررا للجنة الترجمة والتبادل الثقافي بالمجلس منذ إنشائه عام ١٩٥٨م وحتى وفاته.

-كان مديرا للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية من عام ١٩٥٥م.

- رئيس المجمع اللغوي بالقاهرة عام ١٩٦٣م حتى وفاته .

- كان عضوا مراسلا في الأكاديمية التاريخية الملكية بمدريد والمجمع العلمي ببغداد.

-رئيس نادي القصة .

- رئيس نادي الخريجين المصريين.

- رئيس لجنة تحرير جريدة الجمهورية »[1]

و ٢- وفاته وآثاره :

توفي عميد الأدب العربي و غادر هذه الحياة بعد أن سخر قلمه ولسانه للكتابة والأدب وإذا كان البعض قد أعجب بأسلوبه، فان البعض هاجموه وتعرض من قبلهم إلى كثير من المضايقات، ولقد ترك أثارا عديدة، توفي في «الثامن والعشرين من شهر نوفمبر «تشرين الثاني» من عام ١٩٧٣م، وضع الموت حدا ونهاية لهذا الأديب العبقري والناقد اللوذعي. فانتهت بموته حقبة من أغنى الحقب الأدبية والعلمية في تاريخ مصر وتاريخ العالم العربي».[2]

١ - طه حسين، في الشعر الجاهلي ،ص ٤٥.

٢ - يحي شامي، المرجع السابق ،ص١٣.

ألف عدة كتبا تنوعت مضامينها، مؤلفاته التي ألفها بمفرده تبلغ« ٥٧ مؤلفا أما مؤلفاته التي ألفها بالاشتراك مع آخرين تبلغ ٨١ مؤلفا، هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب التي أشرف عليها وراجعها وحققها وكتب مقدماتها».[١]

أثرى "طه حسين" المكتبة العربية بالعديد من الأعمال والمؤلفات تتمثل في عدد من الروايات، والقصة القصيرة، والشعر، وقد حملت أعماله الكثير من الأفكار التي تدعو إلى الانفتاح على الثقافات الجديدة ونذكر من أعماله الأدبية:

كتاب الأيام الذي يعتبر بحق من أروع السير الذاتية « في أدبنا الحديث والقصص التي ترمي الفؤاد وتجرع القلب»[٢]، يحكي فيها عن قصة حياته، حيث يبدأ بطفولته في قريته ويذكر فيها لحظات السعادة التي عاشها، ولحظات الخوف واليأس التي رافقته بسبب فقدانه البصر ،كما يشير إلى خلافه مع مشايخ الأزهر وانتقاله إلى الجامعة، وعبر عن سخطه من الواقع الاجتماعي، فقد ذكر كل تفاصيل حياته« ومن أروع ما يذهب إليه مترجمنا في أيامه فيعبر عنه بمرارة وألم، فقدانه بصره يوم كان طفلا نتيجة لجهل أهله ثم ما أصابه من حزن عميق بموت أخته الصغرى من نفس السبب أيضا فنراه يقول:

" أصبحت الطفلة ذات يوم في شيء من الفتور والهمود لم يلتفت إله أحد و الأطفال في القرى ومدن الأقاليم معرضون لهذا النوع من الإهمال، ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد ، وربة البيت كثيرة العمل .....

وعلى هذا النحو فقد صبينا عينيه، أصابه الرمد فأهمل أياما، ثم دعي الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه "»[٣].

---

١ – المرجع السابق، ص١٤.

٢ – المرجع نفسه، ص١٥.

٣ – مصطفى غالب، عباقرة الأدب، ص٩.

نشر في سنة ١٩٢٥م، كتاب "قادة الفكر"وفيه يصور مراحل التطور الفكري والثقافي في الغرب، وفي سنة ١٩٢٦م، نشر كتابه "في الشعر الجاهلي " وهو الكتاب الذي أثار حوله الكثير من الانتقادات، وثارت ثائرة النقاد فاضطر إلى إعادة طبعه باسم جديد "في الأدب الجاهلي "، وفي سنة ١٩٣٢م، أخرج كتابه "في الصيف "وهو مجموعة رسائل كتبها بأوربا في صيف سنة ١٩٢٨م، يصف فيها رحلته في البحر وأثرها فيه ويجره ذلك إلى ذكريات أول رحلة له إلى فرنسا ويستحضر في مخيلته مراحل من شبابه حين كان في الأزهر.

وفي سنة ١٩٣٣م، نشر عن دراسته عن "حافظ وشوقي "كما نشر أول جزء من سلسلته الإبداعية "على هامش السيرة و ظهر له بعد هذا الجزء جزءان يتخذ من السيرة النبوية وما فيها من أحداث و أشخاص مادة لقصص رائع[١].

وفي نهاية سنة ١٩٣٤م، ينشر سلسلة من محاضراته في نشأة النثر العربي، وفي طائفة من الشعراء العباسيين بعنوان "من حديث الشعر والنثر"،كما نشر قصة "أديب"، ثم بعد ذلك وضع كتابا تناول فيه حياة المتنبي وشعره سماه "مع المتنبي"[٢].

كما ألف طائفة من القصص منها: «" دعاء الكروان"، الذي حلق في تحليل النفس التي تتنازعها عوامل الانتقام والحب وله:" الحب الضائع" القصة المثالية التي عالجها بأسلوب سلس»[٣].

[١] – شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر، ص٢٨٢.

[٢] – المرجع نفسه، ص٢٨٣.

[٣] – خير الدين الزركلي ،الأعلام،ص٢٣٣.

ومن القصص أيضا "أحلام شهرزاد"وشجرة البؤس "، وبلغ به الإعجاب والتأثر بأبي العلاء إلى أن نشر بحثا جديدا عنه سماه"مع أبي العلاء في سجنه "يصور فيه جوانب نفسية وعقلية دقيقة لهذا العقل الكبير[1].

وكان قد شغف بالأدب اليوناني في حياته وترجم بعض آثاره ككتاب " نظام الاثنين لأرسطو" وآلهة اليونان " و" صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان "، وله فلسفة "ابن خلدون" وهو رسالة الدكتوراه بالفرنسية إلى السوربون ترجمتها إلى العربية "محمد عبد الله عنان" " درس التاريخ القديم " و"مستقبل الثقافة في مصر جزآن و"عثمان " و "علي وبنوه" و " رحلة الربيع والصيف" وقد ترجم كثير من كتبه إلى عدة لغات وعينته جامعة الدول العربية رئيسا للجنتها الثقافية فأدارها مدة، وحاول البدء في عمل" دائرة المعارف " عربية ولم ينجح آخر أعماله الحكومية[2].

إن ثقافته المتعددة المشارب كان لها الأثر الكبير في تنوع مؤلفاته، فكتب قصصا تعبر عن التقاليد والعادات في عصره ،وألف كتبا تحدث فيها عن التطور الثقافي في الغرب، إضافة إلى كتب النقد.

[1] – شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٢٨٢.

[2] – يحي شامي، المرجع السابق، ص١٢.

الفصل الثاني

القضايا النقدية بين الجاحظ و طه حسين

1/ القضايا النقدية عند الجاحظ

2/ القضايا النقدية عند طه حسين

١- القضايا النقدية عند الجاحظ:

لقد كان النقد في بداياته مجرد انطباعات ساذجة وأراء غير معللة تعتمد على الذوق فقط وبمرور الزمن تطور النقد وأصبح يعتمد على أدوات في التحليل وتعددت بذلك النظريات والقضايا النقدية.

واجه "الجاحظ" عدة أطروحات وقضايا نقدية كانت سائدة في عصره، ومن القضايا التي نالت حظا وافرا من اهتماماته وشغلت حيزا من كتاباته : السرقات ،قضية الوضوح والغموض،الطبع والصنعة،اللفظ والمعنى و...غيرها.« و قد عبر عن هذه الإشكالات بوضوح و قوة على المرغم من ميله إلى التعادلية أو التوافقية أو مسك العصا من وسطها، لكنه أثراها و كشف عن الكثير من الإشكاليات التي كانت سائدة في عصره عصر ظهور الحركات الفكرية و نضج الفكر المعتزلي ووضوح الحرية الفكرية فالجاحظ على وفق ذلك فاتحة لعصر جديد من التحرر الفكري» [١].

على الرغم من أن "الجاحظ" أثار قضايا نقدية طرحت مسبقا، إلا انه لم يدرسها كسابقيه بل أعطاها تصورا جديدا، فآراؤه فريدة ومتميزة لها وزنها ومكانتها بين بقية الآراء النقدية.

أ-السرقات الشعرية:

وهي من القضايا والموضوعات التي أولاها النقاد اهتماما كبيرا وعناية فائقة، والسرقة هي أن يأخذ شاعر من غيره ألفاظا أو معان أو حتى أبيات، وقد يكون ذلك بدافع إعجاب الشاعر بشعر غيره فيأخذه ويصرفه لنفسه «وإذا كان أمر السرقات قد عنى به بعض أعلام البلاغة كالآمدي في الموازنة و "أبي هلال" في الصناعيتين، و" القاضي الجرجاني" في الوساطة، فإن "الجاحظ" قد سبق هؤلاء جميعًا في الإشارة إلى الأخذ

[١] – قيس كاظم الجنابي، مقال البيان والتبيين بوصفه نقدا شعريا، ص١٥.

و السرقة، نجد ذلك في قوله:قال" يزيد بن مفرغ":

العَبْدُ يُقْرَعُ بِالعَصَا و الحُرُّ تَكْفيه المَلامَة».[1]

و قال: «أخذه من "الفلتان الفهمي"،إذ قال:

العَبدُ يَقرَعُ بالعَصَا وَالحرُ تَكفِيه الإِشَارَة

و قال "مالك بن الريب":

العَبدُ يُقرَعُ بالعَصَا وَ الحُرُّ يَكفِيه الوَعِيد

و واضح من هذه الإشارة أن هذا الأخذ الذي ذكره من السرقة الظاهرة التي سماها بعض النقاد "نسخًا و انتحالا" وهو أن يؤخذ المعنى كله مع اللفظ كله من غير تغيير في نظمه».[2]

فهذه الأبيات تتضمن الألفاظ نفسها والمعاني ذاتها، إنما الاختلاف في الكلمة الأخيرة فقط وإن كانت تحمل معنا واحدا، وهذا ما يسميه بعض النقاد سلخا.

وقد أشار بوضوح لهذه القضية ابن رشيق إذ قال: «وقال بعض الحذاق من المقربين من أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقا، فإن غير بعض اللفظ كان سالخا»[3].

و قد أشار "عمرو بن بحر" إلى هذه القضية عندما صرح بأن الأدباء يحاولون الاستيلاء على ما يجدونه لغيرهم، والأسباب التي تضطرهم للأخذ من الآخرين الإعجاب بتشبيه جيد، أو معنى غريب وشريف، فيقول: «و لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب، وفي معنى غريب أو شريف كريم أو بديع مخترع، إلا وكل من

[1] – فوزي السيد عبد ربه عيد، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين، ص٢٥٧.

[2] – المرجع نفسه، ص ٢٥٨.

[3] – ابن رشيق العمدة، ٢٨١/٢ .

جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه، أو يدعيه بأسره. فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى،ويجعل نفسه شريكا فيه....».[1]

وهو بقوله هذا يقصد أن الشاعر مهما حاول أن يبدع في قول أو تعبير فهناك من سبقه إليه،ولكننا نعتقد أن الشاعر و إن سبقه الأولون، فهذا لا يعني بأن السرقة مشروعة فالشاعر قد يتأثر بغير هو لكن هذا لا يبيح له السرقة.

أشار "الجاحظ" إلى السرقات الشعرية من خلال ذكره لبعض الأبيات التي يشك فيها وهو بذلك قد سبق الكثيرين في إشارته لهذا الموضوع وإن لم يفصل فيه.

ب-قضية الوضوح و الغموض:

إن الوضوح والغموض من أبرز القضايا التي أرقت الباحثين فأصبحت قضية جدلية بين مؤيد ومعارض، وإن كان البعض يرى بأن المعنى يجب أن يكون مكشوفا واضحا فإن البعض الأخر يرى أن الغموض هو علامة التجديد و الإبداع.

لقد أدرك "الجاحظ" أن المعاني هي « مجلى الأفكار و المشاعر و الخواطر و أنها تكون خفية إلا أن يظهرها الأديب، و لكنه لم يشأ أن يدع للأديب أن يظهرها على ما يشاء من وضوح أو غموض مادام حريصا على اللغة فقد صرح بأن قدر الكلام في وضوح الدلالة، و أن ذلك هو ما نطق به القرآن الكريم، و تفاخر به الناس».[2]

يرى بعض جهابذة الألفاظ و نقاد المعاني بأن المعاني القائمة في صدور الناس المصورة في أذهانهم و المختلجة في نفوسهم، و المتصلّة بخواطرهم و الحادثة عن فكرهم مستورة خفية و بعيدة وحشية، و محجوبة مكنونة، أي أن المعاني تكون غامضة عندما تكون في أذهاننا والذي يمحو عنها هذا الغموض هو التلفظ بها والإخبار عنها

[1] – محمد عبد الغني المصري، نظرية أبي عثمان الجاحظ، ص١٩٩.

[2] عصام قصبجي، أصول النقد القديم، ص١٦٢

واستعمالها،وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم و تجليها للعقل و على قدر وضوح الدلالة و صواب الإشارة و حسن الاختصار و دقة المدخل يكون إظهار المعنى، و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح كانت الإشارة أبين و أنور، و الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي بالنسبة لهؤلاء العلماء تتمثل في البيان.

الذي دعا إليه الله عزّوجل ومدحه و حث عليه، بذلك نطق القرآن و بذلك تفاخرت العرب و تفاضلت أصناف العجم.

إن الذهن ينفر من الوضوح التام مثلما ينفر من الغموض التام،و خير المعاني هي التي لا تكون واضحة صريحة،ولا معقدة مبتذلة، بل هي التي تجمع بين شيء من الوضوح ،وشيء آخر من الغموض،فلاهي مبتذلة و لاهي معقدة و إنما تبتغي بين ذلك سبيلا يمكنها من التلميح دون التصريح غير أن الجاحظ قد سن للنقاد سننا لا يحيدون عنهافي مسألتين رئيسيتين هما:

الأولى: أن الشعر ضرب من التصوير.

الثانية: أن الوضوح سبيل البيان.

و كل من هاتين يفضي إلى محاكاة المظهر المرئي الواضح، والجاحظ إذا من النقاد الذين يحبذون الوضوح ويؤثرونه عن الغموض فهو يدعو لوضوح الدلالة لأنه يعتبر الوضوح سبيل البيان.[1]

جـ-قضية الصدق و الكذب:

وهي من أهم القضايا التي تطرق إليها النقاد، فقصدوا بالصدق مطابقة الواقع والكذب مخالفة الواقع، فالشاعر الحقيقي هو الذي يكون كلامه معبرا عما في نفسه من صدق الشعور و العاطفة، أما إن لم يعبر عن صدق الإحساس فهذا الشعر يتسم بالكذب[2]

[1]- المرجع السابق، ص١٦٣.

[2] - محمد صايل حمدان و آخرون ، قضايا النقد القديم ، ص ٢٨ .

وقد تكون نظرتهم هذه مبنية على نظرتهم للخطابة فمن صفات الخطابة الصدق أو الكذب لأنها شديدة الصلة بالسياسة والحكم،والسياسة والحكم يتصلان بالدين، وهذا الارتباط هو الذي جعل الصدق من أهم صفات الخطابة، لأن الأخلاق تقف عنده[1].

لقد تمتع الشعر منذ القديم بمكانة مرموقة ذلك لأنه ديوان العرب يحمل أمالهم وآلامهم وفضائلهم،فالشاعر في العصر الجاهلي طالما تمتع بعلو القدر ورفعة المكانة، فقد كان يمثل الشجاعة والفروسية والمثل العليا، وهذه المثل لم تخضع للعامل الديني في ذلك العصر بل خضعت للعرف الاجتماعي.

لذا كانت صحة الشعر أو صدقه أساسا في الحكم عليه ولهذا قالوا: إن أصدق الشعر ما كان مطابقا للنظم الاجتماعية الساندة آنذاك فقد كان أدبهم وشعرهم صورة صادقة لحياة العرب وواقعهم لهذا فقد انصب نقدهم على الصياغة و على المعاني و الصحة و الخطأ الصدق و الكذب.[2]

ففي ذلك الوقت كان الحكم على الشعر من خلال الصدق أو الكذب فهذه القضية معيار من معايير نقد الشعر والحكم على جماليته.

ومن ذلك قولهم: إن أكذب الأبيات قول" المهلهل":

« فَلولا الريحُ أَسمَعُ مَن بحَجَر صَليلُ البيض تُقرَعُ بالذكُور

و قالوا: إن قوله خطأ و كذب من أجل أن بين موضع الواقعة التي ذكرها و بين حجر مسافة بعيدة جداً فمن غير المعقول أن يسمع صوت صليل السيوف هناك»[3].

إن الذي جعل هذا البيت كاذب هو عدم المطابقة للواقع، فالمبالغة فيه ظاهرة.

---

[1] المرجع السابق ، ص ٢٨.

[2] – المرجع نفسه، ص٢٩.

[3] –الجاحظ، البيان و التبيين، ص ١٢٤.

ومن الأمثلة التي نذكرها، أنه كان يكره« إفراط المولدين في وصف في وصف السرعة. وأورد قول الشاعر يصف كلبه بسرعة العدو »[1].

فهو يكره كلما يمت للكذب بصلة ويدعو دائما إلى الصدق« و نراه يتهم "أبا البلاء الطهري" بالكذب لأنه كان يصف مغامراته مع الجن و العفاريت يقول الجاحظ:

و" أبو البلاء الطهري" كان من شياطين الأعراب،و هو كما ترى يكذب و هو يعلم و يطيل الكذب، و يحبذه و من ذلك قوله:

فَقَالَت زِد فَقُلتُ رُويدًا إني عَلَى أَمثَالَهَا ثَبتَ الجنَان.

و يرى "الجاحظ" كذلك أن على الشاعر أن يخاطب الممدوح بما يقتضيه المقام و هو بهذا يدعوه إلى الصدق الفني»[2].

يحصي "الجاحظ" أسباب التي تدفع بالشاعر إلى الكذب في قوله:«تكلف الصنعة والخروج إلى المباهاة،ومناسبة أصحاب التشديق، ومن كان كذلك كان أشد افتقارا إلى السامع من السامع إليه لشغفه أن يذكر في البلغاء،وصبابته للحاق بالشعراء،ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة،وولد ذلك في قلبه شدة الحمية، وحب المجاذبة،ومن سخف هذا السخف،وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة،كانت حالة داعية إلى قول الزور والفخر والكذب،وصرف الرغبة إلى الناس،والإفراط في مديح من أعطاه،وذم من منعه»[3].

يرجع أسباب الكذب إلى تكلف الشاعر ومباهاته بشعره لأنه بحاجة لسماع المديح أكثر من حاجة المتلقي لسماع شعره، ولهفته وشوقه إلى أن يذكر مع العظماء ويحقق الشهرة والذي توفرت فيه هذه الصفات يفرط في الفخر بالكذب، والمديح من أجل التكسب. يقول بعض النقاد أن أحسن الشعر أصدقه، ولعل الجاحظ من أكثر الذين يؤمنون بهذه

[1]– الجاحظ، الحيوان ٣٥/٢.

[2]– الجاحظ، الحيوان ١٥٩/٦.

[3]– محمد عبد الغني المصري، المرجع السابق، ص١٥٦.

المقولة فقد أشار إلى عدم المبالغة في الصورة الشعرية وأن يكون الشعر مطابقا للواقع فالجاحظ يدعو الشعراء إلى الصدق و ينهاهم عن الكذب و المبالغة و الزيف في القول.

د-الطبع و التكلف

يعتبر من أهم المقاييس التي اهتم بها النقاد و أسهبوا في الحديث عنها، واعتبروها من الأمور الأساسية في قياس الأدب.

يرى "أبو عثمان" بأن العربي عامة يميل إلى الطبع والارتجال أكثر من الصنعة والزخرفة وهذا راجع لطبيعة حياته السهلة،فكل شيء بالنسبة لهم بديهة و كأنه الهام وليس هناك معاناة ولا إحالة فكر،فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا وكانوا مطبوعين لا يتكلفون، فلم يحفظوا إلا ما اتصل بعقولهم من غير تكلف.[1]

فالطبع هو السجية التي جبل عليها الإنسان وهذا ما امتاز به العرب في قولهم الشعر، فما إن يستحضر الشاعر موضوعا في ذهنه حتى تأتيه المعاني، والألفاظ دون تكلف منه أو تصنع.

ومميزات مدرسة الطبع عنده تتمثل في:

سهولة مخرج الكلام، حلاوة النغم وليونته من خلال المهارة في رصف الكلمات ضمن العبارة الأدبية.[2] اختيار الألفاظ العذبة

كما قال: « ليس من قال الشعر بقريحته وطبعه، واستغنى بنفسه كمن احتاج إلى غيره يطرد شعره، ويحتذي مثاله ولا يبلغ معشاره»[3]

[1]- المرجع السابق، ص١٣٥.

[2]- المرجع نفسه، ص ١٣٦.

[3]- المرجع نفسه، ص ١٣٨.

. فإن الشاعر الذي يعتمد على ذاته وحسه وذوقه في اختيار الألفاظ فلا يقلد غيره ولا يعتمد عليهم، واستغنى عن الأخذ من شعر الآخرين أعلى مكانة، و أحسن من الشاعر الذي يحتاج إلى الغير لينظم شعرا.

و إذا كان "الجاحظ" يحبذ الطبع،فانه يدعو إلى الابتعاد عن الصنعة والتكلف، وقد عبر عنها بالعبارات التالية:

" فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير"و" هجر الغريب و الحوشي " و" رغب عن الهجين السوقي" " وجل عن الصنعة "، "ونزَّه عن التكلف "[1]، وكما قال تبارك وتعالى ﴿ **و ما أنا من المتكلفين** ﴾[2]. فهو في نبذه للغريب و تحذيره منه نراه يحذر من التكلف في صناعة الأدب فيجب أن يكون الأديب مطبوعًا في أدبه، كما يبتعد عن اللفظ الغريب والوحشي والهجين السوقي و أن يكون أدبه خاليًا من التشدق و التعقيب

و الاستكراه، والتقعير في الكلام.

فالأصمعي كان يفضل "النابغة الجعدي" من أجل ذلك، و كان يقول« الحطيئة عبد لشعره فقد عاب شعره حين وجده كله متخيرًا منتخبا مستويا لمكان الصنعة و التكلف و القيام عليه.

إن التشادق و التقعير من العيوب التي تخل بالفصاحة و يجب تجنبها و إن كان صاحب التشديق و التقعير و التعقيب من الخطباء و البلغاء مع سماجة التكلف و شنعة التزيد أعذر من عيي يتكلف الخطابة، و من حصر يتعرض لأهل الاعتياد و الدربة. و يستشهد على ذم التكلف و الميل مع الطبع و السهولة مما ورد عن الرسول الكريم صلوات الله و سلامه عليه–في هذا المعنى».[3]

---

[1]– المرجع السابق، ص ١٤١.

[2]– سورة ص، الآية ٨٤.

[3]– فوزي السيد عبد ربه عبيد، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين، ص١٥٢.

فالرسول الكريم حذر من التشدق والثرثرة أي التكلف فقد قال الرسول صلىّ الله عليه وسلّم:" إن أحبكم إلي و أقربكم مني مجلس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطؤون أكنافًا،الذين يألفون و يؤلفون، و إن أبغضكم إلي و أبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون و المتشدقون المتفيهقون" وقال أيضًا:" إياي و التشادق".

ويوضح "الجاحظ" معنى التشادق فيقول: "إنما عاب النبي صلّ الله عليه وسلم المتشادقين و الثرثارين، و الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها و الأعرابي المتشادق، و هو الذي يصنع بفكيه و بشدقيه مالا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلف فهو أعيب و الذّم له ألزم".

و عند حديثه عن فصاحة الرسول، يذكر الجاحظ أن الرسول صلوات الله عليه و سلم، إذا كان قد نهى عن التكلف و حث على الطبع و السهولة فإن كلامه كان تطبيقًا عمليًا لذلك، فهو الكلام الذي قل عدد حروفه و كثر عدد معانيه، و نزه عن التكلف، فاللفظ لا يقع موقعه من الحسن ولا يأخذ مكانه من القلب إلا إذا كان بعيدًا عن التكلف موافقًا لطبيعة الشاعر و ينبه الجاحظ إلى ذلك بقوله:"و متى شاكل-أبقاك الله-اللفظ معناه و أعرب عن فحواه.

و كان لتلك وفقًا، ولذلك القدر لفقا،و خرج من سماجة الاستكراه، و أجدر أن يمنح جانبه من تناول الطامعين و يحمي عرضه من اعتراض العائبين و ألا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة. "[1]

يرى "شوقي ضيف" أن "الجاحظ" بالغ في نظرته للطبع العربي« فإذا العرب يقولون بداهة وارتجالا على خلاف غيرهم، فإنهم يقولون متكلفين ونجده يقول في البيان والتبيين:"من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده زمنا طويلا يردد فيها نظره ويحيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله زماما على رأيه، و رأيه

[1]- المرجع السابق، ص ١٥٢.

عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله الله من نعمته وكانوا يسمون تلك القصائد:الحوليات والمقلدات والمنقحات».[1]

ويقول أيضا:« كان" زهير بن أبي سلمى" يسمي كبار قصائده الحوليات.لولا أن الشعر قد كان استعبدهم، و استفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف و أصحاب الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوا و تنثال عليهم الألفاظ انثتالا».[2]

ومن خلال هذا الكلام نكشف التناقض الذي وقع فيه الجاحظ فهو الذي دافع عن العرب واعتبر أنهم يعتمدون على الطبع في قول الشعر، ويعود ليؤكد على أن هناك طائفة من العرب تسعى إلى تجويد الشعر، وتدخل بذلك في باب التكلف والصنعة.

أما "فوزي السيد" فيقول: «و إذا كان الجاحظ صاحب مذهب في الصنعة و تثقيف الأدب فإن الصحة عنده شيء غير التكلف و السماجة، وإنما هي تهذيب للأدب بعد طول التفكير و ترديد النظر و هو شيء نادى به و دعا إليه و أشاد به.

فالشعراء القدماء كانوا يهتمون بصناعة الأدب و يتفنون في اختيار ألفاظهم ومعانيهم و ينقصون كلامهم، و يعيدون فيه النظر، طلبًا للكمال، و ليس هذا معناه التكلف أو الاستكراه و إنما هو تثقيف بعد تفكير و طول نظر، و ربَّما صدر من هؤلاء بعض الألفاظ التي يستغلق معناها فليس معنى ذلك أنهم متشادقون أو متكلفون لأنهم يستعملون ألفاظهم التي تجري مع سجيتهم و طبعهم. و لذا فإن الجاحظ يفرق بين البدوي و الحضري في استعمال الغريب و استخدام كل منهما له».[3]..

[1]- الجاحظ، الحيوان ٥٤٢/٥.
[2]- الجاحظ، الحيوان ١٣٠/٣.
[3] - المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .

يرى "الجاحظ" بأن الاهتمام باختيار الألفاظ والمعاني وإعادة النظر فيها، لا يعتبر تكلفا بل هو تثقيف للأدب، وإن استعمل الشاعر ألفاظا غريبة فهذا أيضا لا يعني التكلف، ولكن هذه المفردات التي قد تبدو غريبة للبعض هي معروفة ومألوفة عند الآخرين لأنها نابعة من بيئتهم، فالشاعر إذا يستعمل الألفاظ التي تتماشى مع محيطه الذي يعيش فيه. ويمكننا القول بأن هؤلاء الشعراء المطبوعين لم يلغوا التكلف تماما، وإنما كانوا يقولون الشعر على طبيعتهم ثم يعيدون النظر فيه من أجل إخراجه في أحسن صورة وهذا ما سماه الجاحظ التثقيف بعد التفكير، ولذلك يمكن القول أن الطبع درجات.

هـ-اللفظ و المعنى:

تعد من القضايا التي فرغ لها جهابذة النقد وأوسعوها تحليلا، وبحثوا عن أيهما أهم اللفظ أم المعنى، فهناك فريق يحب زخرفة اللفظ وتنقيحه فهو بذلك يقدم اللفظ على المعنى وفريق آخر يكره الشكل والزخارف والاهتمام عنده منصب على المعنى، وهو بذلك يؤثر المعنى على اللفظ.

يلاحظ كثير من المؤرخين لنشأة البلاغة العربية أن مفهوم البلاغة عند بعض العلماء و خاصة الجاحظ « مرتبط كل الارتباط بمفهوم الخطابة و قد فضل الجاحظ العرب على غيرهم بالارتجال و البداهة و عدم المعاناة.

يذكر" الجاحظ" أن سهل بن هارون كان شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة و مقومات البراعة فيها: من الجبارة و الحلاوة و الفخامة وجودة اللّهجة و الطلاوة و هكذا يحدد أوصاف البلاغة و مقومات البراعة فيها بالجهارة في الصوت، و الفخامة في اللفظ و حلاوة النطق، و جودة اللّهجة، و كلها من أوصاف و مقومات الخطيب»[1].

[1]- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص٢٦٣.

فالبلاغة بالنسبة له تتمثل في جمالية اللفظ وجودته، والاهتمام بالشكل من جودة النطق واللهجة، وقد جاء هذا في صحيفة هندية استشهد بها الجاحظ:« أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة و ذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح قليل الحظ متخير اللّفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوق»[1].

و من خلال قراءتنا لهذه الصحيفة يلاحظ أن معنى البلاغة عند الجاحظ مرتبط كل الارتباط بمفهوم الخطابة، وعلى الخطيب أن يهتم باللفظ وأن يراعي مقتضى الحال فيخاطب الملوك بما يناسبهم والعامة بما يتناسب وثقافتهم.

و يقول "الجاحظ" أيضًا:« لا يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدّين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، و العالم عندنا هو الذي يجمعنا و كان طبيعيا من رجل هذه ثقافته و تلك نزعته أن يكون كتابه صورة لتفكيره، و ما كان يدور في تلك الحقبة من اتجاهات عقلية و جدلية و فلسفية، و أن تتأثر ملاحظاته البيانية بهذه الاتجاهات السائدة ،فيكون للخطابة و الخطبة و خصائصها النصيب الأوفى من هذه الملاحظات، و تكون المناظرة و الجدل و المنطق و الفلسفة عوامل موجهة لتحديد صفات البلاغة و البيان عنده»[2].

وقد وصف الجاحظ رواة عصره في معرفتهم بالشعر و بصرهم بمعانيه.«قال الجاحظ: قد أدركت رواة المسجديين والأحاديث و القصائد».[3]

يرى "الجاحظ" أن اللغة تتطور بتطور المجتمعات فتدخل ألفاظ جديدة، ونحن نستطيع أخذ فكرة عن قوم ما من خلال معرفتنا للغتهم.

---

[1]– المرجع السابق، ص٢٦٤.

[2]– المرجع نفسه، ص ٣٥٠.

[3]– المرجع نفسه، ص٣٥١.

كما يرى أن اللفظ بدن والمعنى هو الروح، يوجد المعنى أولا ثم اللفظ، فاخترعنا السيارة أولا ثم أعطيناها الاسم، إذا المعاني موجودة في الذهن ولكنها تحيا عندما نخبر عنها فالجاحظ إذا يهتم بالمعنى، مادام اللفظ في خدمة المعنى، والمعنى هو الروح الذي تسكن هذا الجسد أي اللفظ.[1]

لذا قال:« ومدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ والحقائق لا العبارات ».[2]

أما بالنسبة للشعر فهو يدعوا إلى جودة السبك، وتخير الألفاظ المناسبة للمعاني والاهتمام بالزينة والزخرفة حتى يصل إلى القلب والعاطفة[3].

ويقول "الجاحظ" الناقد تعليقا على بيتين من الشعر:« و إنما قد سمعت أبا عمرو قد بلغ من استجابته لهذين البيتين و نحن في المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضر دواة و قرطاسًا حتى كتبهما له، و أنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرًا أبدًا، ولولا أن أدخل في بعض القيل لزعمت أن ابنه أشعر منه و هما قوله:

لا تَحسبَنَّ المَوتَ مَوتُ البَلَى وإنَّمَا المَوتُ سُؤَالُ الرجَال

كلاَهُمَـــا مَـوتٌ وَلَكــن ذَا أَفظَعُ من ذَا الذُّل السُّـؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني».[4]

فقال في هذا الشأن:« و المعاني المطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي و البدوي و القروي، و إنما الشأن في إقامة الوزن و تمييز اللفظ و سهولته وسهولة

[1]– محمد عبد الغني المصري، المرجع السابق، ص٨٣.

[2]– الجاحظ، الحيوان، ٥٤٢/٥.

[3]– محمد عبد الغني المصري، المرجع نفسه، ص٨٦.

[4]– محمد زكي العشماوي، المرجع السابق، ص٢٧٠.

المخرج، و في صحة الطبع و جودة السبك فإنما الشعر صناعة، و ضرب من النسيج و جنس من التصوير»[1].

فالجاحظ قد نفض عن المعاني كل أهمية،فيرى أن المعاني معروفة لدى العامة ويؤكد على أهمية اللفظ أكثر من المعنى.

فالجاحظ لا يخرج في فهمه للفظ والمعنى عن الحقائق الآتية:

أولاً:« سيادة النظرة المنطقية للغة، مما أدى إلى أن تتشابه البلاغة بالخطابة، و أن يرتبط مفهوم الشعر بالنظرة المنطقية للغة، مما سلب عن اللغة أو كاد طبيعتها الخيالية

و عوق من فكرة التوحيد بينها و بين الشعر.

ثانيا: استقلال المعنى عن اللفظ، فالمعنى يوجد أولا أو مستقلا ثم يتبعه اللفظ أو يقتضيه مما يدل على قصور في فهم عملية الخلق الأدبي على وجهها الصحيح.

ثالثًا: المبالغة في العناية بالشكل، فالشعر صياغة و ضرب من النسيج و جنس من التصوير، و قد تطرق "الجاحظ" في هذه النظرة حتى كاد الحكم على الشعر عنده أن يكون حكما على الجمال الخارجي فيه، دون النظر إلى المحتوى الذي كاد أن ينعدم عنده فأصبح الشكل بذلك مقياسًا للبراعة، و انتهى "الجاحظ" في هذا بمثل ما انتهى إليه الأصمعي فالأصمعي الذي سئل:« من أشعر الناس؟ فقال: من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرًا، أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا»[2].

[1]– الجاحظ، الحيوان ١٣١/٣.

[2]– أبو فرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص١٠١.

وإذا كان "الجاحظ" يولي اهتمامه للألفاظ، فهو يدعو إلى تجنب اللفظ السوقي والعامي الساقط،كما يحذر من استعمال الوحشي والعويص والمستنكر، ويكره التعقيد في اللفظ لأنه يتعب القارئ ويجعله يبذل جهدا في الفهم[1].

جعل "الجاحظ" كل اهتمامه منصبا على الألفاظ دون المعاني فالمعاني على حد قوله معروفة لدى الجميع فالشاعر عليه أن يتخير ألفاظه، و أن تكون هذه الألفاظ مناسبة للمعاني كما يجب عليه أن يتجنب التنافر، و أن يكون لشعره ما يسمى بالقران فنادى بالائتلاف و الانسجام بين ألفاظ البيت الواحد و بين حروف ألفاظه.

و قد أبان "الجاحظ" عن رأيه حول اللفظ و المعنى، و نصح بتجنب كلما هو سوقي ووحشي من الألفاظ و كلما هو غريب في المعاني، والابتعاد عن التعقيد، فينصح الكاتب بالسهولة حتى يريح القارئ من مشكلة الفهم.

2- القضايا النقدية عند طه حسين:

إن النقد هو أحد الفنون الأدبية يهدف إلى دراسة الأثر الأدبي أو الفني، وتفسيره وتحليله وموازنته بغيره، ثم الحكم عليه بالإيجاب أو بالسلب، وتقويمه، ويجري هذا في الحسيات والمعنويات، وفي مختلف ضروب العلوم، والأدب والفنون، وكل ما يتصل بالحياة، فالنقد الأدبي يمس كل ما يخص الأدب منثورا أو منظوما ومهمته هي الأخذ بيد الأدباء والقراء للوصول بهم إلى أسمى الغايات[2].

كتب "طه حسين" في قضايا نقدية كثيرة بعضها مقالات في الصحف وبعضها دراسات عن أدباء كبار كنقده للمتنبي فقد افرد له كتابا إضافة إلى نقد شعراء الجاهلية.

[1]- محمد عبد الغني المصري، المرجع السابق، ص ٩٠،٩١،٩٢.

[2]- منيف موسى، في الشعر والنقد، ص٥٤ .

أ-الوضوح والغموض:

عالج "طه حسين" هذه القضية ودرس العديد من القصائد، حيث يبين جانب الوضوح والغموض فيها، ومنها دراسته لخصائص المعري في قصائده.

يرى "طه حسين" بأن للمعري خصائص تميزه عن غيره و أول هذه الخصائص غموض الأغراض وذلك ظاهر في سقط الزند الدرعيات و اللزوميات جميعا فإنك تقرأ القصيدة من أبي العلاء وقد فهمت ألفاظها المفردة فلا تكاد تفهم معانيها[1].

هذا الغموض مصدره شيء في نفس الشاعر، وقد بينه لنا "أبو العلاء" في قوله: "أنه وحشي الغريزة إنسي الولادة "فهذه الغريزة الوحشية يستحيل أن يصدر عنها إنسي الشعر، وكما أن صاحبها غريب الأطوار فشعره وآثاره الأدبية ينبغي أن تكون مثله أما في طوره الثاني فلم يبلغ الغموض من القوة ما بلغه في الطور الثالث، ذلك لأن أبا العلاء كان شديد الحرص فيه على التقليد والاحتذاء، وعلى أن يتصل في شعره بأهل العصر، ومن هنا ظهر روح المتنبي في أشعار هذا الطور.

حتى أنك لتقرأ لاميته التي مطلعها:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل، فيخيل إليك أنك إنما تقرأ في ديوان المتنبي، على أن أبا العلاء قد تأثر بغير المتنبي من الشعراء، فتكاد تلمح في نونيته التي مطلعها :

عَلَّلاَني فانَّ بيضَ الأَمَاني فَنيَت وَالظَّلاَمُ لَيسَ بفَاني

وللعلوم الفلسفية تأثير ظاهر في شعر "أبي العلاء "غير اللزوميات، فإنك تجده في سقط الزند وفي الدرعيات شديد الحرص على القصد في الألفاظ والمعاني[2].

[1]- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٢١٩.

[2]- المرجع نفسه، ص٢١٩.

ولأبي العلاء في أشعار الطور الأول والثاني، ألفاظ وأساليب جاوز فيها المقيس من قواعد النحو، فلم يتقيد بقواعده والشعر الجيد لأبي العلاء، إنما هو شعر الطور الثالث لأن شخصية الشاعر وعواطفه تظهر فيه.[1]

ب–قضية الصدق عند طه حسين:

اختلف النقاد في هذه القضية فهناك من يرى أن الشاعر عليه أن يتحلى بالصدق، بينما يرى آخرون بأن أعذب الشعر أكذبه فلا يمكن للشعر أن يبهر ويؤثر في القارئ إلا إذا ترصع بالكذب.

«و في أدبنا العربي كثير من آيات التنبه إلى معالم الجودة في الأدب و قياسه بمقياس الطبع و الصدق في التعبير عن النفس، و أثر ذلك في تقبل هذا الأدب و التأثر به»[2].

يرى طه حسين بأن الصدق من أهم القضايا في النقد الحديث لذا يجب أن نتحرى الصدق في التعبير عن الشخصية و في البحث عن مقوماتها، و الملاءمة بين الشخصية و مقوماتها من ناحية وإنتاجها الفني من ناحية أخرى وهذه الملاءمة بين الأدب و الأديب أصبح يعبر عنها بعبارات أخرى كلمة "الأدب هو الرجل" أو "الفن هو الرجل"، وهذه الكلمات المأثورة تمثل اتجاها له أهميته و اعتباره في التقدير فإذا لم تتحقق هذه الكلمة أو إذا لم يتحقق ما تعنيه هذه الكلمة فُقِدَ الأدب أو فقدت الفنية في الأدب أهم مظاهرها كما فقدت ينبوعها الأصلي الذي تسقى منه، ذلك أن الشاعر يجب أن يتمثل في شعره إلى حد ما، فالشاعر الجيد حقا هو الذي يكون شعره مرآة نفسه و عواطفه، فتظهر شخصيته كلها، فإذا قرأت قصائده المختلفة، تشعر فيها بروح واحد و نفس واحد و قوة واحدة،ويختلف هذا الشعر شدة و لينا ويتباين عنفا و لطفا و لكن شخصية الشاعر[3].

---

[1]– المرجع السابق، ص٢٢٠.

[2]– بدوي طبانة، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، ص ٣٠٣.

[3] - المرجع نفسه ، ص ٣٠٤ .

ظاهرة فيه محققة للوحدة الشعرية بحيث يمكنك أن تعرف بأن هذا الشعر لفلان، أو هو موضوع على طريقة فلان.[1]

من خلال رأي "طه حسين" يمكن القول بأنه من النقاد الذين يؤثرون الصدق ويفضلونه ويؤكد على أن الأديب أو الشاعر يجب أن يكون شعره معبرا عنه ، تظهر فيه شخصيته ويعبر عن أحاسيسه وعواطفه، وأن يكون شعره خاصية يمتاز بها عن غيره حيث يعرف بأنه شعره مباشرة من خلال قراءتنا له.

جـ-الطبع و التكلف:

وهي من القضايا التي عرض لها "طه حسين" في نقده لبعض الشعراء، ليميز بين الشعر المتكلف والشعر المطبوع وقد قدم تعريفا للطبع والتكلف فقال:«إن الأديب

أو الشاعر إنما يصدر أدبه وشعره إما عن طبيعة أودعها الله في قلبه تقتضي مثل هذا الشعر أو الأدب، وإما عن تأثير للبيئة التي يعيش فيها، وإما استجابة لظاهرة اجتماعية شائعة مفادها أن ينتج الأدباء، ويسمع لهم الناس أو يقرؤون. »[2]

يظهر مفهوم الطبع والتكلف من خلال التسمية فالطبع هو من طبيعة الإنسان والسجية التي جبل عليها الانسان عامة بينما التكلف هو المبالغة والتصنع.

والدليل على ذلك أنه ما من بيئة بدوية أو متحضرة «إلا ولها لون من الأدب يتلاءم وطبيعة أدبائها، و يلائم بين هذا الأدب ومستمعيه، ومن هذا القبيل الشعر الجاهلي الذي كان يقوله الشاعر، فيشيع من حوله في سائر القبائل. ولما تغير العصر و تحضرت الأمم تغير أدبها وتطور دون التنكر للقديم»[3].

---

[1]- المرجع السابق، ص٣٠٤

[2]- طه حسين، خصام ونقد، ص٤٥

[3]- المصدر نفسه، ص ٤٥.

فالأدب عامة والشعر خاصة يتغير بتغير الأمم، وتطورها فالشعر عند الأمم البدوية يختلف عن الشعر عند الأمم المتحضرة وذلك لاختلاف البيئة .

وفي جميع الأحوال ظل الأدب تعبيرا عن حياة الأمم، فكل أدب من الآداب إنما هو وبحسب تعبير "طه حسين": يصور نوعا من أنواع حياتها، ولونا من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها وانعكاس صور الحياة في نفوسها[1]. «إن الأديب وفي كل عصر من العصور إنما هو ينشئ أدبه لبيئته التي يعيش فيها لا لفرد من الناس، ولا لجماعة محدودة منهم...هكذا فعل زهير في الجاهلية، ومثله امرؤ القيس و النابغة والأعشى، وهكذا فعل الأخطل وجرير والفرزدق في العصر الإسلامي...أنهم كانوا يقولون الشعر لكل الذين كانوا يستطيعون أن يفهموه ويذوقوه، ومن المؤكد أن بيئاتهم كلها كانت تستطيع الفهم والذوق»[2].

فالأديب أو الشاعر يجب أن يمثل العصر الذي يعيش فيه، و يكون أدبه نابعا من بيئته وموجها إلى أفرادها يعبر عن أذواقهم وميولهم، وأن يكون حسب ثقافتهم حتى يتسنى لهم فهمه. وبصرف النظر عن صدق الشاعر أو كذبه،فإن الذي يعنينا هو« هذا الشعر الجميل الصادق في تصوير المثل الأعلى فيما ينشئ من مدح وثناء،لأن المادحين والممدوحين يذهبون وتبلى أشخاصهم ولكن المثل العليا التي يصدقون في تصويرها تبقى للناس»[3]

ومهما يكن من أمر فإن الشاعر في حد ذاته لا يعنينا إنما الذي يثير اهتمامنا هو المثل العليا والقيم والأخلاق التي تحملها أبيات الشعر لأنها الشيء الوحيد الباقي.« إن من أخطر ما يشاع اليوم،فهم الأدب على أنه وسيلة من وسائل الإصلاح، وسبيل من سبل التغيير في حياة الشعوب فحسب.

[1]– المصدر السابق، ص ٤٧.

[2]– المصدر نفسه، ص ٥٥.

[3]– المصدر نفسه، ص ٥٥.

قد يكون الأدب هكذا في حال صدوره عن صاحبه صدورا طبيعيا تماما كصدور الضوء عن الشمس،أو العبير عن الزهر...إن ضوء الشمس،يقول طه حسين :"لا يصدر عنها لتحقيق الأغراض وبلوغ الغايات التي تحققها أنت وتبلغها به، وإنما يصدر عنها بطبيعته ،وتنتفع أنت به أيضا،وتحقق به أغراضك، وتبلغ به غاياتك،وتوجهه مع هذا كله إلى ما تريد، والى ما تستطيع لأنك تجده يغمرك ويتاح لك ويهديك ويتيح لك ما تجد فيه من النفع..." »[1]

قد يقدم الأدب المنافع لكثير من الناس، ويوصلهم إلى غاياتهم، ويرضي رغباتهم ويحقق كثيرا من حاجاتهم، و يلائم دائما حياة الناس، لأنه صورتها التي تشتق منها وتعود إليها، ولكن هذا لا يعني أبدا أن نطلب إلى الأدب أن يحقق كل هذا في إلحاح مزعج ومريب، وأن نتكلف من أجل تحقيق ما نريد،انه يحققها عفوا، لاعن قصد وتعمد...يقول "طه حسين": "إن الأدب لا يكره شيئا كما يكره أن يكون وسيلة، والأدباء لا يكرهون شيئا كما يكرهون أن يكونوا أدوات تستغل وتستذل وتبتغي بها المنافع والحاجات [2].

و إذا كنا نتخذ الأدب وسيلة لتحقيق غاياتنا، ونكرسه من أجل الوصول إلى أهدافنا فهذا ليس بالأمر الجيد،فالشعر أسمى من أن يكون هكذا،فهو يكره أن يكون وسيلة لتحقيق المنافع والوصول إلى الغايات.

وقد يقول قائل إن الشعراء والكتاب في العصور القديمة كانوا يتخذون الشعر أو الأدب وسيلة إلى السادة من الممدوحين، وليس هذا صحيحا أبدا، إن الشعراء والأدباء اتخذوا السادة وسيلة إلى الإنتاج والإبداع الذي وجدوا فيه اليوم غذاء القلوب والأذواق والعقول[3].

[1]– المصدر السابق، ص ٥٦

[2]– المصدر نفسه، ص ٦٢.

[3]– المصدر نفسه، ص ٦٦.

إن الشائع عندنا هو أن الشعراء في القديم اتخذوا من الأدب أداة للتكسب وأخذ المال من ممدوحيهم، فأصبح بمثابة العمل للحصول على المال، لكن طه يرى بأن تفسيرنا خاطئ فلم يتخذوا الأدب وسيلة إنما الوسيلة هي السادة الممدوحين.

فطه حسين فهم الأدب« بأنه صدور طبيعي عن نفس صاحبه، وذوقه وإحساسه وطبعه... ولا يعني هذا أن ينأى الأدب عن الحياة والواقع، ولا أن يبقى جامدا، أو أن يكون صدى للماضي ليس غير، وإنما يعني أن يتطور الأدب مع الحياة، ويصورها في حاضر الأمر ومستقبله كما صورها في ماضيه».[1]

وإذا كان الشاعر يعبر عن ذاته وإحساسه فهذا لا يعني أن ينغلق على نفسه، بل يتطور الأدب بتطور الحياة.

فالأدب في مفهوم "طه حسين"« فوق الشبهات،وفوق التسيير والتسخير، بحجة ملاءمة العصر ومواكبة الحركات التحررية...الأدب في مفهومه ليس أرضا ولا مالا، ولا مادة و إنما هو روح والروح يرى وينظر ويلح في الرؤيا والنظر، ثم يسيغ، ثم يتمثل ثم يخرج بعد ذلك في مهل ما أساغ وما تمثل»[2].

وعن التكلف يرى "طه حسين" بأن شعر "أبي العلاء" في طور الحداثة تكثر فيه المبالغة ويظهر فيه التكلف، وتنقصه متانة اللفظ، ورصانة الأسلوب، وإتقان المعنى.

ويظهر هذا التكلف في رثائه لأبيه:

وَنادَبَة في مَسمَعي كُلَّ قَينَة تُغَرِدُ باللَّحن البَريء منَ اللَّحن[3]

---

[1]– المصدر السابق، ص ٦٧.

[2]– المصدر نفسه، ص ٦٧.

[3] - طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ١٦٩ .

يرى "طه حسين" بأن هذا البيت يحمل معنا جميلا ظريفا، غير أن الألفاظ غير مناسبة فهذا البيت شانه الجناس المتكلف.

ثم يشير إلى بيت آخر،استعمل فيه المعنى ذاته ولكن البسه ألفاظ عذبة ملائمة، وصورة جميلة وأسلوب صاف فقال :

أبكت تلكُـم الحَمَامـةُ أم غَنَّت عَلَى فَرع غُصنهَا المَيَّاد[1]

قد يتكلف الشاعر في استعماله الألفاظ والبديع ويظن بأنه سيحصل بذلك على شعر جيد ولكن على العكس من ذلك فإن كثرة التكلف تفسد الشعر فيفقد رونقه وجماله.

أمـا شعـر "أبـي العـلاء" فـي الطـور الثاني فقد نقـص فيه التكـلف، وزادت فيه المتـانة، و صح فيه تمثيل عواطف الشاعر وعندما جاوز الخامسة والثلاثين بدأت المبالغة في شعره تنقص، ويظهر الاقتصاد في اللفظ والمعنى كما تظهر الاصطلاحات الشعرية في شعره ومن أمثلة ذلك استعارته الاصطلاحات الفقهية في قوله:

وَرُبَّ ظُهر وَصَلنَاهَا عَلَى عَجل بعَصـرهَا من بَعيد الوَرد لَمَّاع

بضَربَتين لطُهر الوَجه وَاحـــدَة وللذرَاعَين أخرى ذَات إسـراع

أما شعره في الطور الثالث فقد صبغه بصبغة التشدد في كل شيء، وكلفه التزام ما لا يلزم في أعماله العقلية فامتنع في أشعاره عن المبالغة، لأن حرصه على الصدق يحول بينه وبين التكلف والمبالغة[2].

[1]– المرجع السابق ، ص ١٩٦.

[2]– يحي شامي، المرجع السابق، ص ٦٧.

أما عن التكلف في شعر حافظ إبراهيم، فنجد طه حسين يقول:عندما قرأ قصيدته التي قالها بمناسبة زيارة الملك فؤاد بقصر الزعفران في العباسية وهي تبدأ بقول[1]:

أقَصر الزَّعفَرَان لأنتَ قَصر خَليقٌ أَن يَتيه عَلَى النُّجُوم

كِـــلاَ عَهدَيكَ للأَجيَال فَخر وَزَهـــو للحَدِيثِ وللقَديـــم

وعلى الرغم من العلاقة الطيبة مع حافظ إلا أن طه حسين لما قرأ القصيدة نصحه بأن لا يضيفها إلى ديوانه« فنفر أشد النفور، ونصح صاحبها أن لا يضيفها إلى ديوانه لأن فيها إساءة لشعره المتقن نظرا إلى ما فيها من عيوب، ومجافاة لأصول الشعر والفن والإبداع»[2]

لقد بحث طه حسين في القصيدة كلها فلم يجد شيئا وقرا الأبيات جميعا بل سأل كل بيت فيها بل كل شطر،بل كل كلمة،عن سيء وعن جميل شعره وعرفت عنه الجودة والشاعرية لكنه في هذه القصيدة لم يعرف الإتقان ولم يهتد إليه،وسبب ذلك في رأي "طه حسين" يعود إلى خلو القصيدة من المعنى الرائع والتصوير الجميل، إنها عبارة عن لفظ مرصوف وكلم منظوم ومعان مستهلكة ومرددة لطالما أتى مثلها الشعراء، وطرق من التعبير سئمها الناس،ومجها الذوق العام.

يقول "طه حسين":" لقد أكثر الشاعر من المبالغات فأساء أداءها، وأكثر من استخدام الألفاظ المتكلفة، أضف إلى ذلك أن قوافي القصيدة على جانب من التكلف بحيث تبدو وكأنها أنزلت في غير منازلها، وأكرهت على أن تستقر حيث لا تحب. "[3]

وبخصوص المبالغات التي أساء الشاعر استخدامها وأداءها يدل "طه حسين" على قوله:

---

[1]– محمد حافظ إبراهيم، المؤلفات الشاملة، ص ١٠٦.

[2]– يحي شامي، المرجع السابق، ص ٦٨.

[3] - المرجع نفسه ، ص ٨٩ .

أَفَقتَا بَعدَ نَومِ فَوقَ نَومِ عَلَى نَومِ كَأَصحَابِ الرَّقِيمِ

فيعلق عليه بالقول:

فهل تجد جمالا أو شعرا في كثرة هذا النوم ؟أليس يذكرك هذا البيت بيتا مثله قديما هو:

فَمَا لِلنَّوَى جَذُّ النَّوَى قَطعُ النَّوَى كَذَلِكَ النَّوَى قَطَّاعَةٌ لِوِصَالِي

سمع "الأصمعي" هذا البيت فقال: لو سلط الله على كل هذا النوى شاة شاة فأكلته فماذا عسى أن نقول في نوم حافظ وهل تجد لأصحاب الكهف هنا موضعا يلائم القصيدة. وقد يبدو أن "طه حسين" ناقد ناقم وساخط لا يهتم إلا بإظهار السيئات،ولكنه ناقد يبرز مواطن الضعف والقصور عن الإبداع وخير مثال على ذلك موقفه النقدي من قصيدة شوقي التي تحمل عنوانا لها توت عنخ أمون[1].

ومطلعها[2]:

قِفِي يَا أُختَ يُوشُع خَبرِينَا أَحَادِيثَ القرُون الأَوَّلِينَا

يتحدث فيها "شوقي" عن عظمة مصر وتاريخها المغرق في الحضارة والقدم يشير "طه حسين" إلى الوصف الذي وصفت به القصيدة على صفحات الأهرام بأنها درة الشعر والنظم، يشير إلى هذا الوصف فيخفف من غلوه ويكسر من حدته ليقول أن هذه القصيدة ليست كما وصفتها الأهرام، بأنهامن أجود قصائد شوقي وليست تخلو من الرديء وأن له قصائد أحسن منها.[3]

[1]– المرجع السابق، ص ٨٤.

[2]– أحمد شوقي، الشوقيات، ٢/ ٢٦١.

[3] - يحى الشامي ، المرجع السابق ص ، ٨٤ .

ويرى "طه حسين" بأن مصدر الجودة فيها هو شيء واحد يتمثل بعدم تكلف "شوقي" في شعره لا في اللفظ، ولا في المعنى، وبصدق الإحساس فقد أحس "شوقي" بشيئين اثنين أحدهما أن لمصر تاريخا ومجدا عظيما وثانيهما أن تاريخ مصر الحديث لا يعد شيئا بإزاء تاريخها القديم وهذا ما وفق شوقي في توضيحه[1].

د-اللفظ والمعنى:

إذا كان "الجاحظ" من الكتاب الذين يعلون من شأن الشكل فما رأي "طه حسين" في هذه القضية «إن طه حسين يسلم بنوع من الجبرية في عملية التعبير على مستوى المضمون الذي يتدفق كما يتدفق ماء المنبع، ويلم بنوع من الجهد اللازم على مستوى الشكل الذي يصب فيه هذا المضمون كما يؤكد الفصل الحاد بين شكل العمل الأدبي ومضمونه وعندئذ تبدو الانفعالات أو المشاعر أو الأفكار أو المعاني في ناحية وتبدو اللغة من حيث هي ألفاظ أو شكل أو أداة في ناحية أخرى وتصبح العلاقة بين طرفي الثنائية علاقة بين شيء يوجد أولا، وشيء لاحق يحتويه أو يعبر عنه»[2].

فالمحتوى بالنسبة إليه منفصل عن الشكل تماما، والعلاقة بينهما هي علاقة أسبقية الوجود يستحضر المعنى أولا ثم يأتي اللفظ ليعبر عنه،والعلاقة بينهما تتمثل في أن وجود الأول يقتضي وجود الثاني.

يقول "طه حسين": "إن الخواطر والآراء، مهما تكن لا تستطيع أن تخطر للنفس أو تلابسها أو تستقر فيها إلا إذا اتخذت لها من الألفاظ صورا وأزياء، تمنحها الوجود وتمكنها من الحضور على البال والاستقرار في الضمير." وهذا قول قد يلمح للعلاقة الوثيقة

[1]- يحي شامي، المرجع السابق، ص ٨٤

[2]- جابر عصفور المرايا المتجاورة، دراسة في نقد طه حسين، ص ١٠٤.

بين اللغة والفكر، ولكنه يجعل العلاقة ثنائية الطابع. بحيث تنفصل الخواطر والآراء عن اللغة من ناحية وتصبح اللغة نفسها صورا وأزياء.[1]

كل ما يخطر للنفس من آراء أو أحاسيس لا يمكن أن تخطر دون وجود الألفاظ، فهي بمثابة الزي الذي تلبسه المعاني لتثبت بذلك وجودها، فالمعنى جسد لباسه الألفاظ.

ولكن العبارة نفسها لها تراث قديم مرتبط بثنائية المعنى واللفظ وما يتصل بها من تشبيه الكسوة فهي تردنا إلى "الجاحظ" «الذي كان يتعامل مع اللغة بوصفها الأداة التي تنتقل بها المعاني من مكامنها المستورة في الذهن إلى الواقع المادي الملموس. فيدركها المتلقي ويتعرف عليها بعد أن كانت المعاني نفسها محجوبة في ذهن صاحبها».[2]

فطه حسين بتعريفه هذا للفظ والمعنى شاكل "الجاحظ"، والذي أعطاها نفس المفهوم،فهو يرى أن المعاني موجودة في الذهن واللفظ هو الوسيلة التي تنقلها إلى المتلقي.

وكأن كل معنى لا يمكن أن يعبر عنه إلا بلفظ. فلا سبيل إلى معرفته كما يقول *إخوان الصفا منطلقين من الجذر الأساسي في فكرة الجاحظ، ولكن هذه النظرة تظل مسلمة بإمكانية وجود المعنى بلا لفظ يعبر عنه ومن ثم استقلال المعنى عن لفظه، حتى لو رفعه اللفظ إلى درجة التعرف ومكن له من الوجود.[3]

و«بهذا ترتبط ثنائية اللغة بمفهوم الصنعة فتتحول بذلك اللغة إلى مجرد أداة للتعبير. لا علاقة لها بخلق المعنى ولكنها تكشف عنه فيصبح تعامل الأديب مع اللغة كتعامل الصانع مع أدواته.

[1]– المرجع السابق، ص ١٨٥.*إخوان الصفا: جماعة من الفلاسفة المسلمين.

[2]– المرجع نفسه، ص ١٨٥.

[3]– المرجع نفسه، ص ١٨٥.

كي ينتج شيئا مصنوعا من مادة متاحة ونتيجة هذا التعامل هي صنعة، يمكن التمييز فيها بين الصورة أو الشكل والمادة أو المحتوى. وتعني الصنعة في هذا السياق القدرة على إحداث نتيجة سبق تصورها بواسطة فعل خاضع للوعي وللتوجيه وليس الإلهام أو الجبر»[1].

فاللغة بحسب هذا المفهوم ليس لها علاقة بوجود المعنى و إنما هي مجرد وسيلة للتعبير فهي تشبه أدوات الصانع يستعملها لإنتاج شيء مادته موجودة. «إن الصانع ليس ملهما يهبط الوحي أو الإلهام أو الجبر. بل هو صانع ماهر ينتج من أجل مستمعين»[2].

فنحن نلاحظ أن "طه حسين" انتقل من تصوره الأول القائم على كون المعاني تتخذ ألفاظا تمنحها الوجود إلى تصور آخر يؤكد على ضرورة التخطيط ليكسب هذه المعاني ألفاظا تناسبها وهو بذلك ينتقل من فكرة الأديب الملهم إلى الأديب الصانع.و«عندما يسيطر مفهوم الأديب الصانع على ذهن "طه حسين" يتناسى ما ألح عليه من مفهوم الأديب الملهم ويدخل في منطقة مغايرة من التصورات، يلح معها على الجهد الواعي، وإتقان الأدوات وضرورة أن يسبق التخطيط التنفيذ»[3].

فالمعاني لتكتسي ألفاظ لابد من جهد يبذل ، وأدوات تستعمل، يدخل "طه حسين" هذه المنطقة من التصورات يؤكد على أن الشاعر الماهر هو الذي يتصور أركان القصيدة وأغراضها ومحتواها قبل تحويلها إلى شكلها المطلوب، فهو بذلك يعرف شكلها قبل مضمونها، وهو بهذا لا يختلف عن ابن طباطبا الذي يرى أن الشاعر إذا أراد بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا ثم ألبسه الألفاظ المطابقة له ، والقوافي التي توافقه، والوزن المناسب له

[1]– المرجع السابق، ص ١٨٥.

[2]– المرجع نفسه، ص١٨٥.

[3]– المرجع نفسه، ص١٨٦.

وحين يجزم "طـه حسين" بأنه من الصعـب أن تفصل بين صـورة الأدب ومـادتـه أو يرى بأن صورة الأدب ومادته شيئان لا يفترقان، أو هما شيء واحد فانه يظل قريبا من الثنائية البلاغية القديمة بل يظل يفكر بمصطلحاتها خصوصا عندما يؤكد دعواه على أساس أننا لا نعرف المعاني المجردة التي لم تتخذ ثيابها من الأفاظ ولا نعرف الألفاظ الفارغة التي تنتظر المعاني لتلبسها للألفاظ .[1]

فالشاعر لا يمكن أن يقول القصيدة قبل أن يخطط لها ويتصور شكلها قبل أن يصبح مضمونها على هذا النحو. ثم يعود "طه حسين" ليؤكد على أنه لا يمكن فصل اللفظ عن المعنى فالمعاني ليس لها قيمة ما لم تتوج بالألفاظ. « إنما نعرف الألفاظ والمعاني ممتزجة متحدة لا تستطيع أن تنفصل ولا أن تفترق،وما أعلم أننا نستطيع أن نتبادل المعاني المجردة دون ما يدل عليها من لفظ أو صورة أو رمز، وما أعلم أننا نستطيع أن نتبادل الألفاظ الجوف التي لا تدل على شيء فليس ذلك من شأن العقلاء.

تمثل هذا المنحى من التفكير يؤكد الثنائية ولا ينفيها، ويدعم علاقة الاحتواء وليس التجاوب أو التفاعل خصوصا عندما يضيف طه حسين إلى المعنى واللفظ عنصرا ثالثا يلزمهما لزوما لا فكاك منه،وهو عنصر الجمال، وعندما يقول "طه حسين": إن في الشعر جمالا فنيا خالصا يأتيه أحيانا من قبل اللفظ، وأحيانا من قبل المعنى وأحيانا من قبلهما معا»[2].

وأجمل الشعر عند "طه حسين" هو الذي يتلاءم لفظه مع معناه، وأن يكون لفظه جيدا بعيدا عن الركاكة، وأن يكون المعنى جيدا مستقيما.

« فحركة "طه" في بحثه عن الجمال في الشعر حركة موزعة بين أوجه ثلاثة يمثل أولها حالة من ائتلاف المعنى واللفظ في الكلام البليغ، ولقد حدد "طه حسين" هذه الحالة في

[1]– المرجع السابق، ص ١٨٦.

[2]– المرجع نفسه، ص ١٨٧.

أول كتبه تجديد ذكرى أبي العلاء عندما قال:"خير القول ما أحسن لفظه مطابقة معناه وأجاد معناه مطابقة غرضه، على أن تكون الألفاظ مألوفة غير مبتذلة ولا نائية وعلى ألا تخرجها الصناعة إلى التكلف الممقوت." ولقد حددها كذلك في فترة نضجه في حديث الأربعاء عندما قال:"يحتفظ بالمقاييس التي احتفظنا بها دائما في نقد ما ينتج الكتاب والشعراء صحة المعنى واستقامته وطرافته، وجودة اللفظ ونقاؤه وارتفاعه عن الركاكة والإسفاف على أقل تقدير."وحددها أخيرا في واحد من أواخر كتبه خصام ونقد، عندما قال:"إن الألفاظ وحدها لا تعي شيئا وإن المعاني وحدها لا تعي شيئا وإن الأدب لا يكون إلا إذا ائتلفت الألفاظ فيما بينها وبين المعاني وكأن الجمال الفني هو الذي ألف بينها فأحسن التأليف"»[1].

يؤكد على ضرورة استعمال لفظ يلائم المعنى فيعبر عنه، ويرى بأن هناك من يستعمل ألفاظ عذبة بليغة لمعان لا ترقى لمستوى هذه الألفاظ، فيعطي بذلك كسوة جميلة لمعنى قبيح، فيقاس جمال الشعر حينئذ بجودة الألفاظ. فعندما يجد "طه حسين" هذا الوجه من الجمال الفني في الشعر نسمع منه حديثا عن لبيد الشاعر القديم« الذي إن فاتك أن تذوق ألفاظه الضخمة...فمن يدري لعلك تذوق هذه المعاني الرائعة. كما نسمع عن "جرير":أنظر إلى جمال لفظه وسهولته وخفته على السمع وحسن موقعه من النفس وأنظر إلى دقة معناه وسعة هذا المعنى الذي لا حد له.

ولكن هذه المطابقة بين اللفظ والمعنى أو الملاءمة بين الشكل والمضمون سرعان ما يتكشف جانبها السلبي، وعندئذ يبحث طه حسين عن الوجه الثاني من جمال الشعر من قبل اللفظ فحسب فنواجه اللفظ الذي لا يعبر عن معنى يوازيه في القيمة. وكأن الألفاظ هنا تلهي القارئ وتصرف انتباهه بأبعادها الحسية وإيحاءاتها الصوتية عما في المعنى نفسه من تسطح أو سذاجة أو بساطة أو نقص بل تخيل الألفاظ للقارئ أن المعنى ينطوي على قيمة»[2].

[1]– المرجع السابق، ص ١٨٩.

[2]– طه حسين، حديث الأربعاء ١/ ١٨.

فحسن الألفاظ وجودتها وقوتها، يصرفنا عن المعنى ويلهينا فلا نلاحظ سطحيته وقبحه. لهذا يحدثنا "طه حسين" عن هذا الجانب من فساد المعنى وجمال الأسلوب فيرى أن« علاقة اللفظ الجميل بالمعنى الفاسد يخفي فيها الأول عوار الثاني، أو على الأقل كيف يمكن للفظ الجميل أن يلهينا عن سذاجة المعنى ودقته أو طرافته، وهكذا يتوقف بنا مع المتنبي».[1]

ليلفتنا إلى هذين البيتين:

فَقَد مَلَّ ضَوءُ الصُّبحِ مِمَّا تُغِيرُه وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيلِ مِمَّا تُزَاحِمُـــــه

وَمَــلَّ القَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُـــــدُورُ ه وَمَلَّ حَدِيدُ الهِندِ مِمَّا تُلَاطِمُه

ويرى فيهما جمالا يأتيهما أكثره من اللفظ وأقله من المعنى. ثم ينتقل بنا إلى البحتري[2] لنتأمل البيت:

« **يَتَأَبَّـى مُنعِمًا وَيُنْعِـمُ اِسعــــــا فًـــا وَيَدنُو وَصلاً وَيُبِعُـــدُ صَدًا**».[3]

يقول "طه حسين": إذا أردتم تحليل هذا البيت فلن تجدوا فيه شيئا، فهو يتأبى أحيانا ويصل أحيانا وهو معنى شائع، ولكن الجمال لا يأتي من المعنى وإنما يأتي من هذا التقسيم فهو قد أتى بأفعال أربعة، وعلل كل فعل بمصدر من المصادر... هذه الأفعال التي يلي بعضها بعضا ولا يفصل بينها إلا المصادر، هي التي تحدث شيئا من النغم الموسيقي فتصرف عقولنا على أن نفكر فيما وراء هذه الأفعال، ويخيل إلينا أن في البيت شيئا كثيرا مع أن البيت لا شيء فيه.[4]

[1] ـ المصدر السابق ، ١٩/١ .
[2] ـ طه حسين ، حديث الأربعاء ،١٩٩/٣ .
[3] ـ طح حسين ،مع المتنبي ، ص ١٩٨ .
[4] ـ جابر عصفور،المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

ولن يتردد "طه حسين" الناقد في هذه الحالة في التسليم بأن المعاني مبذولة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والبدوي والحضري، وهو بذلك لا يختلف عن "الجاحظ" وكل من تابعه في تراثنا النقدي، وأن الشأن في السبك والصياغة وجودة الوعاء ورونق الكساء ومادام الأمر كذلك فلا جناح على الشاعر أن يغترف من معاني السابقين. ذلك لأنه ليس مطالبا بابتكار المعنى ولكنه مطالب بابتكار الصياغة.

واسمع إلى هذا البيت لكعب بن زهير:

بَانَت سُعَادُ فَقَلبِي اليَومَ مَتبُولُ مُتيَّمٌ إِثرَهَا لَم يُفدَ مَكبُولُ

فيرى بأن المعنى الذي قصد إليه كعب هو نفسه المعنى الذي سبق إليه "زهير" فقد ذهبت سعاد بقلب كعب كما ذهبت أسماء بقلب "زهير". ومن هنا يمكننا القول بأن جوهر الشعر مرتبط بالصياغة الجديدة، فالمعنى نفسه والذي يضفي عليه جمالا فنيا هو ذلك الوعاء الجديد الذي يصب فيه المعنى القديم أو الكسوة الجديدة التي ألبست للمعنى القديم.

وبقدر ما نسمع من "طه حسين" عن أنصار المعاني الذين لا يولون الألفاظ عناية تماثل عنايتهم بالمعنى نسمع منه عن أهمية العناية باللفظ في ذاته[1].

يقول:«"و أحب أن يقاوم شباب الكتاب والشعراء، هذه الثورة العنيفة التي ثرناها على العناية باللفظ، وأن يقدروا أن للألفاظ في نفسها قيما ذاتية إن صح هذا التعبير تقدرها الأذن وتحدث في النفس لذة موسيقية خاصة لا ينبغي أن يهملها الأديب، بل يجب أن يعتني به إما وسعته العناية بشرط ألا تفسد عليه المعنى ولا تضطره إلى الاستغلاق."

[1] المرجع السابق، ص ١٩١

ويؤمن "طه حسين" فيما يتصل بالوزن الشعري بما آمن به نقاد التراث من أن لكل وزن معنى خاصا به، وقدرة مستقلة على أداء انفعالات متمايزة فكل بحر من بحور الشعر حالة نفسية للشاعر فالمتقارب مثلا يلائم اضطراب النفس. »[1]

فإذا استعمل الشاعر بحرا لا يتلاءم مع مضمون القصيدة ومعناها فيفسد بذلك شعره ويعود ليؤكد أنه يمكن أن يوجد لفظ رديء يكتسيه معنى جيد ولكن الشاعر إذا استخدم بحر الشعر في غير موضع له جعل منه قالبا يعبر عن معاني تتنافر مع طبيعته[2].

من خلال اطلاعنا على بعض القضايا عند كل من الجاحظ وطه حسين نجد أنهما يتفقان في كثير من النقاط:

يتفقان في أهمية الصدق عند الشاعر وينهيان عن الزيف و الكذب .

كلاهما من دعاة الطبع،فاللفظ لا يكون حسنا إلا إذا كان موافقا لطبيعة الشاعر، وابتعد عن التكلف والتعقيد.

كما نجد "الجاحظ" يصب كل اهتمامه على اللفظ، فالمعاني معروفة وإنما الاهتمام يكون بحسن الصياغة،أما "طه حسين" فهو يــرى أن الشعر ينقسم إلى :نوع جاد معناه وفسـد لفظـه، وآخر جاء لفظه رديئا لمعنى جيد، وضرب آخر يستجيد فيه المعنى ويستحسن اللفظ،وهناك شعر فاسد اللفظ والمعنى معا. ويفضل الكلام الذي يمتاز باللفظ المتين والأسلوب الجيد، فهو بهذا لا يختلف عن سابقيه من أمثال:"ابن قتيبة"، و"ابن طباطبا".

[1] ــ المرجع السابق ، ص١٩١.

[2] – المرجع نفسه، ص١٩٢.

الفصل الثالث

الموازنة بين الجاحظ وطه حسين في

تناولهما لقضية الانتحال

1/ الانتحال مفهومه وموضوعه.

2/الموازنة بين الناقدين في قضية الانتحال.

١- الانتحال مفهومه وموضوعه:

يعتبر الانتحال نوع من أنواع السرقات لذلك ارتأينا أن نذكر أنواع السرقات، حتى نفرق بينه وبين باقي الأنواع.

أ- نبذة عن السرقات الشعرية وأنواعها:

للشعر والشعراء مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة «فالشعر هو عمود الرواية، عليه مدارها و به اعتبارها، وقد كانت منزلته من العرب ما هي، إذ كان يتعلق بأنسابهم و أحسابهم وتاريخهم، وما يجري مع ذلك حتى كأنه الحياة المعنوية لأولئك القوم، فلم يكن عجبا أن يدور فيهم مع الشمس و الريح وأن تسخر له ألسنتهم فينصرفوا إلى قوله وروايته حتى بلغ منهم مبلغه».[١]

فالشعر معروف منذ القديم، والشاعر عندهم مقدس وذو شأن ومقام رفيع، وقد اكتسب الشعر مكانة هامة عند القبيلة، فهو سلاحها الذي يرفع مكانتها بين سائر القبائل ولما كان الأمر كذلك اضطرت العرب للسرقة حتى تعلي من شأنها. « لم يكن من سبب في جاهلية العرب يبعثهم على وضع الشعر، لأن شعراءهم متوافرون ولأنهم لا يطلبون بالشعر إلا المحامد، و لما جاء الإسلام واندفع به العرب إلى الفتوح اشتغلوا عن الشعر بالجهاد، فلما راجعوا روايته بعد ذلك وذهب كثير من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته صنعت القبائل الأشعار، ونسبتها إلى غير أهلها».[٢]

فبعد الضياع الذي مس الشعر العربي بسبب اشتغالهم عنه، اضطرت العرب إلى وضع الشعر تخليدا لأحسابها وأنسابها وتاريخها وحتى تحافظ على منزلتها.

---

[١]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٢٤٥/١.

[٢]- المرجع نفسه، ص ٢٤٦.

تعتبر السرقات الشعرية من القضايا النقدية التي اهتم بها النقاد، وأفردوا لها أبوابا كثيرة واهتموا بدراستها في كتبهم كما أن موضوع السرقات يعد مجالا خصبا للنيل من الشاعر و الحط من قيمته عن حق و عن غير حق.[1]

وللسرقة مصطلحات متعددة، وأنواع كثيرة و لعل ابن رشيق هو أكثر العلماء تتبعا للمصطلحات الخاصة بأنواع السرقات و تحديد مفهومها و هي: «**الاصطراف:** أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه لنفسه، فإن صرفه إليه على جهة المثل فهو اجتلاب و استلحاق، وإن ادعاه جمله فهو انتحال.

ولا يقال منتحل إلا لمن ادعى شعرا غيره و هو يقول الشعر، و أما إن كان لا يقول الشعر فهو مدع.

أما **الإغارة** أو **الغصب:** إن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة»[2].

ونوع أخر يظهر من خلال قول النابغة وهو « **الاجتلاب** : يقول "النابغة الذبياني"[3]:

وَصَهبَاءُ لاَ تُخفِي القَذَى وَهُوَ دُونَهَا تُصَفقُ في رَوَاوقِهَا حينَ تَقطُب

تَمَزَّزَتهَا وَالديكُ يَدعُو صَبَاحَـــــهُ إِذَا مَا بَنُوا نَعش دَنَوا فَتَصَوبُــوا

فاستطلق البيت الأخير فقال:

وَإِجَانَـةُ رَيَّـا السُّرُورِ كَأَنَّهَـا إِذَا غَمَسَت فِيهَا الزُّجَاجَة كَوكَب

تَمَزَّزتُهَا وَالديكُ يَدعُو صَبَاحَـهُ إِذَا مَا بَنُوا نَعش دَنَوا فَتَصَوَّبُوا»

---

[1]– محمد زكي العشماوي، المرجع نفسه، ص ٣٨٢.

[2]– أبو الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في نقد الشعر، ص٣٤٤.

[3]– النابغة الذبياني، تح حنا نصر الحي ديوان النابغة الذبياني، دار الكتب العربي، ص ١٥.

–**تصفق:** تدار من إناء إلى إناء.

–**تقطب:** تمزج بالماء.

بعض النقاد يرون إن هذا الأخذ ليس سرقة وإنما هو مجرد تمثيل، بينما يراه البعض بأنه سرقة.

والانتحال عندهم يظهر في قول" جرير".[1]

إنَّ الَّذِينَ غَدَوا بِلبكَ غـادروا وَشلاً بِعَينكَ لاَ يَزَالُ مُعِينـــا

غَيَّضنَ مِن عَبرَاتِهنَّ وَقُلنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الهَوَى ولَقِينَا

فإن الرواة مجتمعون على أن البيتين للمعلوط السعدي انتحلهما جرير، «إن السارق عند العرب ما جاء مستترا إلى موضع حصين فأخذ منه ما ليس له لينسب لنفسه ومن هذا الجانب المعنوي للسرقة تأتي السرقات الشعرية، و هي تعني أخذ شاعر من شعر آخر أو إغارته على بعض شعره و نسبته لنفسه.

وتعتبر السرقات الأدبية من أهم القضايا التي عرض لها "القاضي الجرجاني" في الوساطة، والسرقة عنده تقع في المعاني الخاصة التي ابتدعها منشؤها.

فالسرقة عند" الجرجاني" تكون في المعاني الخاصة، وهذه الخصوصية تأتي للمعنى من الانفراد بلفظة تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد بوضع موضعه وزيادة اهتدى إليها الأديب دون غيره، فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع. »[2]

ومن أمثلة ذلك: «فتشبيه الخد بالورد، والورد بالخد من الباب الذي لا يدعي فيه السارق إلا بتناول زيادة تضم إليه أو معنى يشفع به كقول "علي بن الجهم":

عَشِيَّةَ حَيَّانِي بِوَرد كَأَنَّهُ خُدُودٌ أُضِيفَت بَعضُهُنَّ إِلَى بَعض

---

[1]– جرير، ديوان جرير، ص٤٧٦.

[2]– عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، ص ٣١٠.

- **الوشل:** الماء القليل

- **المعين:** الظاهر .

فأضاف بعضهن إلى بعض له، وإن أخذ ما يؤخذ، وإليه ينسب، وكقول "ابن المعتز":

بَيَاضٌ فِي جَوَانِبِهِ إحمرَارٌ كَماَ إحمَرَّت مِنَ الخَجَلِ خُدُود

فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد، لكن كساه هذا اللفظ الرشيق فأنفرد بفضيلة لم ينازع فيها ».[1]

ب- مفهوم الانتحال:

وبما أن موضوعنا هو الانتحال فلابد من تعريفه لغة واصطلاحا.

ب١- لغة: «جاء في كتاب العين انتحل فلان شعر فلان إذا ادعاه "أنه قائل " و نحل الشاعر قصيدة إذا رويت عنه و هي لغيره ».[2]

وفي مختار الصحاح: «نحله القول من باب قطع أي أضاف إليه قولا قاله غيره وادعاه عليه، وانتحل فلان شعر غيره، أو قول غيره إذا ادعاه لنفسه وتنحل مثله و فلان ينتحل مذهب كذا و قبيلة كذا إذا انتسب إليه».[3]

وجاء في لسان العرب:

«وفي حديث ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل النحلة والنملة والصرد والهدهد النحلة الدعوى، وانتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعى أنه قائله، وتنحله : ادعاه وهو لغير و نحله القول ينحله نحلا، نسبه إليه ونحلته القول أنحله نحلا: إذا أضفت إليه قولا قاله غيره وادعيته عليه وفلان ينتحل مذهب كذا وقبيلة كذا إذا انتسب إليه، ويقال: نحل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه، هي من قيل غيره »[4]

---

[1]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، ترتيب وتحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ٤/٢٠٠.

[2]- المرجع نفسه، ص ٢٠١.

[3]- أحمد بن أبي عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٨.

[4]- أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ٥/ ٤١٨.

وجاء في القاموس المحيط: «نحله القول كمنحه نسبه إليه».[1]

أما صاحب تاج العروس فقد عرفه بقوله «انتحله وتنحله: ادعاه لنفسه وهو لغيره ويقال انتحل فلان شعر فلان أو قوله ادعاه أنه قائله، وتنحله ادعاه وهو لغيره، ونحله القول كمنعه، انحلا إذ نسب إليه قولا قاله غيره، وادعاه عليه»[2]

ب٢- الانتحال اصطلاحا :

الانتحال« أو النسخ: هما أن يأخذ الشاعر كلام غيره بعد علمه بنسبته له، بلفظه كله ومن غير تغيير لنظمه، وذلك كما يروي للأبيرد اليربوعي:

فَمَن يَشتَرِي حُسنَ الثَّنَاءِ بمَالِه إِذَا السَّنَّةُ الشَّهبَاء أَعوَزَهاَ القَطرُ

أو أن يؤخذ المعنى، وتبدل الكلمات كلها أو بعضها بما يرادفها».[3]

كقول "امرئ القيس":[4]

وُقُوفاً بِهَا صَحبِي عَلَيَّ مَطِيهُم يَقُولُونَ لاَ تَهلَك أَسَى وَ تَجَمَّلِ

وقول" طرفة"[5] :

«وُقُوفاً بِهاَ صَحبِي عَليَّ مَطِيُّهُم يَقُولُونَ لاَ تَهلَك أَسَى وَ تَجَلَّدِ

[1]- مجد الدين بن محمد بن يعقوب الفيروزبادي، القاموس المحيط، ٥٥/٤ .

[2]- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس ،ص٤٦٤.

[3]- مجدي وهبة- كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، ص ٤١٠.

[4]- الأعلم الشنتمري، ديوان امرئ القيس،تح الشيخ بن أبي شنب، ص ٦٢.

[5]- طرفة، ديوان طرفة، تح محمد ناصر الدين، ص ١٩.

فقول "طرفة" هو نفسه قول امرئ القيس، الاختلاف فقط في الكلمة الأخيرة والكثير من النقاد رأوا بأن طرفة هو من أخذ عن امرئ القيس وحجتهم في ذلك هو أن هذا الأخير أقدم زمنيا. و كلتا الحالتين سرقة أدبية مذمومة».[1]

النسخ ويسمى انتحالا أيضا: «هو أن يأخذ السارق اللفظ و المعنى معا، بلا تغيير و لا تبديل، أو بتبديل الألفاظ كلها، أو بعضها بمرادفها، و هذا مذموم و سرقة محضة كما فعل عبد الله بن الزبير بقول "معن بن أوس":

إِذَا أَنتَ لَم تُنصِف أَخَاكَ وَجَدتَـهُ عَلىَ طَرَفِ الهِجرَانِ إِذَا كَانَ يَعقِــلُ

وَيَركَبُ حَدَّ السَّيفِ مِن أَن تُضِيمَهُ إِذَا لَم يَكُن عَن شَفرَةِ السَّيفِ مَزحَلُ».[2]

وأما تبديل الألفاظ بمرادفها كما فعل بقول "الحطيئة":[3]

دَعِ المَكَارِمَ لاَ تَرحَل لِبُغيَتِهـاَ وَ اقعُد فَاِنَّكَ أَنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

ذَرِ المَآثِرَ لاَ تَذهَب لِمَطلَبِهَـا وَاجلِس فَانَّكَ أَنتَ الآكِلُ اللاَّبسُ

فهذان البيتان يحملان المعنى ذاته مع تغيير في الألفاظ فكأن صاحب البيت الثاني جاء بمرادفات البيت الأول ونظمها على شاكلته وكأنه يشرح ما جاء فيه فقط.

وجاء في المعجم الصافي: « نحل فلان، ينتحل كذا و كذا يدين به أنحل ولده مالا ونحله خصه بشيء منه، نحله القول نسبه إليه، نحل الشاعر قصيدة نسبت إليه و هي من قول غيره. »[4]

[1]- مجدي وهبة، المرجع السابق، ص ٤١٠.

[2]- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف العسيلي، ص ٣٧٣.

- **مزحل:** تنحى عنه و تباعد.

[3]- الحطيئة، ديوان الحطيئة، تح ابن السكيت، دراسة وتبويب مفيد محمد قميحة ،ص ٢٣.

[4]- صالح العلي صالح–أمينة الشيخ سليمان الأحمد، المعجم الصافي في اللغة العربية، ص١٥.

و الانتحال من خلال هذا التعريف هو نوع من السرقة، فالقصيدة تؤخذ لتنسب لغير قائلها.

و قال "الأعشى" في الانتحال:[1]

فَكَيفَ أَناَ وَ انتِحَالِي القَوَا فِيَ بَعدَ المَشِيبِ كَفَى ذَاكَ عَارُ

وَقـَيَّدَني الشعرُ فِي بَيتــهِ كَمَا قَيَّدَ الآسِرَات الحِمَــــار

فالأعشى يبرئ نفسه من الانتحال وحجته في ذلك بأنه عار، فكيف لشاعر قد بلغ من الكبر ما بلغ ويسمح لنفسه أن يسرق الشعر أو أن ينتحل.

ومن الانتحال أيضا«تبديل الألفاظ بضدها مع رعاية النظم، والترتيب»[2]

بقول "حسان "رضي الله عنه: [3]

بِيضُ الوُجُوهِ كَريمَةٌ أَحسَابُهُم شُمُّ الأُنـُوفِ مِنَ الطرَازِ الأَوَّل

فقال غيره:

سُودُ الوُجُوهِ لَئيمَةٌ أَحسَابُهُم فُطسُ الأُنُوفِ مِنَ الطرازِ الآَخِر

فهذا الأخير لم يكلف نفسه عناء التفكير سوى أنه أحضر أضداد ألفاظ بيت حسان ونظمها مع مراعاة نفس الترتيب.

ب٣- الانتحال عبر التاريخ: الوضع و النحل و الانتحال كلها ظواهر أدبية عامة لا تقتصر على أمة من الأمم، ولا يختص بها جيل من الناس دون غيره من الأجيال. وقد تطرق الكثير من النقاد لقضية الانتحال.

[1]- الأعشى، ديوان الأعشى، تح محمد حسين ،ص٥٣.

[2]- ابن المنظور، المرجع السابق، ص ٣٧٣.

[3]- حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تح عبد مهنا، ص ١١.

– **الانتحال قديما:** لم يدون العرب شعرهم في الجاهلية بل كان محفوظا في الصدور مما أدى إلى ضياع الكثير منه، فاضطر الشعراء إلى الانتحال، وقد أشار إلى ذلك القدماء مرارا و تكرارا، وحاولوا جاهدين أن ينفوا عنه الزيف، ومن أهمهم في هذا الجانب "ابن سلام".

– **الانتحال عند ابن سلام:** يرى ابن سلام بأن بواعث الانتحال تنحصر في سببين:

السبب الأول: يرجع إلى انتحال بعض الرواة للشعر وإدخاله في أشعار الجاهليين و المخضرمين، أو نسبته إليهم.[1]

السبب الثاني: يتمثل في وجود بعض القبائل العربية التي قلت أشعارها بعد انتهاء عصر الفتوح لأسباب عديدة، و كانت هذه القبائل تحرص على ألا تكون أمجادها في الشعر أقل من أمجاد غيرها من القبائل، سعت إلى انتحال الأشعار التي تتحدث عن أمجادها.[2] و في هذا يقول ابن سلام: « فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها و مآثرها استغلت بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم و أشعارهم، فزادوا في الأشعار التي قيلت، ويضرب لنا أمثلة عن هؤلاء كحماد الراوية فيرى بأنه أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها وكان غير موثوق به ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار».[3]

– **الانتحال عند ابن قتيبة:** أشار إلى النحل و الوضع في موطني:

الموطن الأول: قول "الأعشى".[4]

---

[1]– قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، ص ٣٠٣.

[2]– ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح محمد محمود شاكر، ص ١.

[3]– ناصر الدين الأسد، المصدر السابق، ص٣٣٤.

[4]– الأعشى، ديوان الأعشى، تح محمد حسين، ص٥.

إنَّ مَحلاً وَإنَّ مُرتَحـِلاً وَإنَّ فِي السَّفَرِ مَا مَضَى مَهلاً

اِستَأثَرَ الله بِالوَفَـاء وَ بالـ ـعَدلِ وَ وَلَّى المَلاَمَـةَ رَجُلاَ

وَالأَرضُ حَمَّالَةَ لِمَا حَمَلَ الـ لَّـهُ وَ مَا إن تُرد مَا فَعَلاَ

يَومًا تَرَاهَا كَشِبه أَردِيَة الـ خَمسِ وَ يَومًا أَديمُهَا نَغَلاً

ثم عقب عليها بقوله: «وهذا الشعر منحول، ولا أعلم فيه شيئا يستحسن إلا قوله:

يَا خَيرَ مَن يَركَبُ المَطِيَّ وَلاَ يَشرَبُ كَأسًا بِكَف مَن بَخِـلاَ

و أورد في الموطن الثاني سبعة أبيات من شعر لبيد آخر ما قوله:[١]

وَكُلُّ اِمرِئ يَومًا سَيعلَمُ سَعيَـهُ إِذَا كَشَفَت عِندَ الإِلهِ المَحاصِيلُ

ثم عقب عليه بقول: «وهذا البيت الأخير يدل على أنه قيل في الإسلام. وهو شبيه بقوله تبارك و تعالى: "وحصّل ما في الصدور"».[٢]

فهذه الأمور التي ذكرت من قبل "لبيد" وكأنها من رجل مسلم يؤمن بالبعث والحساب لذلك اعتبر "ابن قتيبة" هذه الأبيات منحولة. [٣]

- الانتحال لدى المعاصرين:

إن أول من شق طريق البحث في هذا الموضوع من العرب المحدثين هو الأستاذ "مصطفى صادق الرافعي"، ويرى بأن هناك بواعث على وضع الشعر في الإسلام و أهم هذه البواعث:

---

[١]- لبيد بن ربيعة ، ديوان لبيد بن ربيعة ، ص ١٣٢.

[٢]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمنها التاريخية، ص 89

[٣] - شوقي ضيف ، تاريخ آداب الشعر الجاهلي ، ص ١٧٧ .

١-تكثر القبائل و خاصة القبائل التي قلت وقائعها، فانتحلت شعرا يتضمن وقائعا وضعتها لتتباهى بها بين الأمم.

٢-شعر الشواهد: لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو.

٣-الشواهد التي كان بعض المعتزلة و المتكلمين يولدونها للاستشهاد بها على مذاهبهم.

٤-الشواهد على الأخبار، فعندما كثر القصاصون وأهل الأخبار، وضعوا أشعارا وضمنوها أساطيرهم، وقصصهم لتكون شاهدا على أخبارهم حتى يلائموا بين رقعتي الكلام .

٥-الاتساع في الرواية ، زيادة الرواة في القصائد، وإدخالها في قصائد الشعراء.[١]

لم يختلف المحدثون كثيرا عن القدماء في تفسيرهم لأسباب الانتحال فقد أجمعوا على أن السبب الرئيسي هو تلك العصبية التي كانت تدفعهم للافتخار والاعتزاز بقبائلهم وتخليد أمجادهم ووقائعهم فلم يكن هناك من حل سوى انتحال الشعر ووضعه.

ـ المستشرقون والانتحال:

لم تلفت هذه القضية انتباه النقاد العرب فحسب بل قد وجدت الاهتمام من طرف الكثير من المستشرقين وبدأ النظر فيها من المستشرق «"نولدكه" سنة ١٨٦٤م، وتلاه اللورد حين نشر دواوين الشعراء الستة فشكك في صحة الشعر الجاهلي، إلا أن "مرجليوت" يعد أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته، حيث يرى بأن هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية، ثم نحله هؤلاء الواضعون».[٢]

والمستشرقون حين تطرقوا لهذه القضية لم تكن نواياهم سليمة «فالمستشرقين حين أثاروا هذه القضية كانوا يرمون إلى مرمى خبيث، حيث عرفوا مكانة الشعر الجاهلي وأدركوا أن علماء المسلمين قد شعروا بحاجاتهم إلى الشعر العربي، للاستعانة به في فتح مغاليق الألفاظ

[١]- شوقي ضيف، تاريخ آداب العرب العصر الجاهلي، ص ١٧٧.

[٢]- ناصر الدين الأسد، المصدر السابق، ص ٣٥٦.

الموجودة في القرآن الكريم ولولا هذا الباعث الديني لاندثر الشعر، ولم يصل إلينا منه شيء».[1]

إن كان العرب أنفسهم أقروا بأن هناك نوع من الانتحال في الشعر العربي فالمستشرقين أثاروا هذه القضية ولكن نيتهم لم تكن طيبة فهدفهم هو طمس كل الشعر الجاهلي، من الطبيعي أن يهاجموا العرب في تراثهم فهم يعرفون بأن الشعر الجاهلي هو ديوان علمهم، وهو الضمير الذي يعبر عنهم، كما أنه يحمل حضارتهم وثقافتهم لذلك اهتموا بهذه القضية، واعتبروها ثغرة لنشر الشك في نفوس العرب.

٢. الموازنة بين الناقدين:

- أوجه الاتفاق بين الناقدين :

يلتقي الجاحظ و طه حسين في نقاط تقاطع كثيرة تجعلهما يشتركان في أمور عديدة:

أ- **الاشتراك بالمعاناة والإحساس بالظلم:** لقد عانى كل منهما، وأحس بالظلم سواء من الناس أو من الحياة.

فالجاحظ كان قصير القامة، دميم الوجه، قبيح المظهر يضرب به المثل ببشاعته حتى أن تسميته جاءت نسبة لجحوظ عينيه، وقد نسجت حوله النكت والطرف ولكن هذا النقص لم يثن من عزيمته، حتى أنه كان يحكي بنفسه عن مظهره ويحيك القصص المضحكة فقوة شخصيته لم تتأثر بهذا اللقب.

أما بالنسبة لطه حسين، فالعاهة التي أصيب بها، وهي فقده لبصره كان لها أثرها سواء بالإيجاب أو السلب.

[1]- رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص١١١.

فالسلبي يتمثل في معاناته أثناء طفولته، ونجد ذلك في كتابه الأيام في بعض الإشارات المتمثلة في استهزاء إخوته وتهكمهم من تصرفاته.

أما الايجابي: فربما يتمثل في تحديه لهذه العاهة فقد أبدله الله بصيرة ثاقبة. ولأن كل ذي عاهة جبار، لم يبق في ظلمته عاجزا بل تحدى كل التوقعات ومضى في العلم والبحث فاستطاع أن ينتج كما هائلا من الكتب.

ب- بيئة كل من الجاحظ و طه حسين وأثرها في أدبهما:

نشأ كليهما في عائلتين فقيرتين وسط بيئة بسيطة، فالجاحظ عاش الفقر المدقع، فقد اتسمت أسرته برقة الحال فلا يعرف عن أبيه سوى اسمه مما يدل على أنه لم يكن من علية القوم، كما أن أمه كانت تريده أن يعمل بدل من اعتكافه على الكتب وهذا دليل على الفقر الذي كان يعيشه.

أما بالنسبة لطه حسين: « فقد اطلعنا على حياته في بيئته القديمة من خلال مؤلفاته ومن أروع ما يذهب إليه " في أيامه" فيعبر بمرارة وألم عن فقد بصره يوم كان طفلا نتيجة لجهل أهله، وفي المرحلة الثانية من أيام طه حسين يصور اختباراته كطالب أزهري فنراه غلاما يقيم في غرفة تقع في حي بلدي حقير، ولم يكن الفتى يضيق بالفقر، فالفقر شرط للجد و الكد و الاجتهاد والتحصيل،وأن غنى القلوب والنفوس بالعلم خير وأجدى».[1]

فقد كان الفقر إذا حافزا للعلم و المعرفة بالنسبة لكل من الجاحظ و طه حسين وكان له الأثر الايجابي في هذا العطاء، وفي ما قدمه لنا من مؤلفات.

أما عن صورة العصر فقد عاش كل منهما في عصر ازدهار و تطور ورقي فقد نشأ الجاحظ في عصر استقرار و ازدهار في جميع الميادين و الأصعدة عصر توطدت فيه أركان الدولة العباسية، فالعصر العباسي كان عصر تطور أدبي في مجال النثر والشعر

[1]- مصطفى غالب، عباقرة الأدب، ص ١٢.

والترجمة، و في المقابل عاش طه حسين في حقبة من أغنى الحقب المصرية عرفت ازدهارا في جميع الميادين في اللغة والأدب والتمثيل والمسرح والصحافة، كما ظهر خلال هذه الفترة كبار الأدباء والمؤلفين والشعراء.

ورغم اختلاف الفترة الزمنية التي عاش فيها كل منهما إلا إن كليهما عاش فترة عرفت تطورا و ازدهارا في اللغة و الأدب، وهذا التطور والازدهار خاصة على الصعيد الأدبي له الأثر الايجابي على الرجلين، فقد استمدا ثقافتهما من هاتين البيئتين المتطورتين، وكان احتكاكهما بعلماء عصريهما حافز لهما لتحصيل العلم والمعرفة.

جـ- أسباب الانتحال:

يطلق "الجاحظ" أحكاما حول العصر الجاهلي، حيث يرى أن الجاهليين شأنهم شأن بقية الأقوام والأمم سعوا إلى تخليد مآثرهم وبقاء ذكراهم على وجه البسيطة، وهذا أمر متوغل في النفس الإنسانية لا يفارقها البتة، منذ سعى آدم لذلك يوم كان في جنة الخلد والى يوم الناس هذا، وحتى تترك هذه الأمم آثارها، وتبقى راسخة في ذهن الأمم كانت الأمم تحتال لذلك عن طريق العمران وبناء الصروح و الأوابد، كأهرامات مصر و معابد الرومان و هياكل اليونان وقصور فارس، وبما أن العربي، ولا سيما القاطن في شمالي الجزيرة، والذي كان بعيدا عن الاستقرار المكاني، فقد كان العرب بدوا رحلا لم يتسنى لهم البقاء في مكان واحد لم يكن أمامهم لتخليد مآثرهم وبقاء ذكراه سوى الشعر، فهو الأمر الذي يميزهم عن غيرهم من الأقوام فقام عنده مقام الأهرامات و الهياكل والقصور و بريشته أبقى العربي ذكراه حية نابضة إلى ما شاء الله من الأزمان و الدهور[1].

إذا كانت الأمم الأخرى قد تركت لنفسها آثارا خالدة على مر العصور، فالشعر هو الوسيلة الوحيدة للعربي ليترك ذكراه لأنه الميزة التي يتفاخر بها عن غيره.

[1]- أحمد عبد المنعم الحلو، رواية الأدب الجاهلي في مؤلفات الجاحظ، ٢ / ٤١١.

ويقول "الجاحظ" في بيان هذا الحكم و توضيح هذه الحقيقة: « فكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها وتحقيق مناقبها على ضرب من الضروب " وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفى».[1]

وإذا كان "الجاحظ" قصر أسباب الانتحال على الأمور التي ذكرت سابقا فإن "طه حسين" فصل في ذلك تفصيلا و أرجعه لعدة أسباب منها:

- ليس الانتحال مقصورا على العرب :

الانتحال ظاهرة أدبية لم يختص بها العرب لوحدهم، لم تكن الأمة العربية أول أمة انتحل فيها الشعر انتحالا و حمل على قدمائها زورا، فقد وجدت هذه الظاهرة في الأمة اليونانية والرومانية من قبل، وحمل على القدماء من شعرائها و انخدع به الناس وآمنوا به ونشأ عن هذا الانخداع و الإيمان سنة أدبية توارثها الناس مطمئنين إليها.[2]

فالانتحال قضية معروفة لم تقتصر على جيل دون غيره، ولم توجد عند العرب دون غيرهم من الأمم، و"طه حسين" بذكره لهذا الموضوع ربما يلمح لأن العرب أخذوا هذه الظاهرة عن أمم أخرى، أي أنهم استقوها من غيرهم وتوارثوها عنهم.

- السياسة وانتحال الشعر:

يحتاج العرب إلى الاعتزاز بإسلامهم، لأنه الأمر الذي يميزهم عن غيرهم، فهم عرفوا وظهروا لهذا العالم بالإسلام، كما أنهم أهل عصبية وأصحاب مطامع ومنافع فكل حركة من حركاتهم وكل مظهر من مظاهر حياتهم متأثر بالدين متأثر بالسياسة والعصبية من المهاجرين والأنصار أو بعبارة أصح بين قريش و الأنصار، لذا يجب أن يلائموا[3]

---

[1]- الجاحظ، الحيوان، تح عبد السلام هارون، ٣٦/١.

[2]- طه حسين، حديث الأربعاء، ص١١٤.

[3] - المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

بين هذه المطامع وبين دينهم و يورد لتأييد رأييه روايتين الأولى: ما يروى عن "عمر بن الخطاب" أنه نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون و المشركون أيام النبي و يدعم رأيه هذا بما يروى عن عمر من قوله لأصحاب النبي: "قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن، فأما إذ أبوا فاكتبوه."

ويعقب "طه حسين" على ذلك بقوله: "سواء أقال عمر هذا أم لم يقله، فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش على ألا يضيع." والثانية: ما ذكر من أن "ابن سلام " قال: "قد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية فاستكثرت منه في الإسلام".[1]

فطه حسين يشير إلى أن الإسلام ينهى عن الشعر الذي يفسد العلاقات بين المسلمين،كما يرى بأن قريش أرادت أن تخلد أمجادها فوجدت بأن شعرها قليل، فأضافت إليه في الإسلام،وهذا ما يفسر قوله الذي ذكرناه سابقا، فمطامع العرب تتمثل في تخليد أمجادهم من خلال الاستكثار في الشعر، و الملاءمة بين دينهم وهذه المطامع هو النهي عن قول الشعر الذي يثير الخلافات لأن الإسلام ينهى عن الخصومات.

– **الدين:** وهذا السبب يعود إلى ظروف متعددة «فالانتحال يقصد به إثبات صحة النبوة و صدق النبي، ويمكن أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهدا لبعثة النبي».[2]

فالشعر الذي قيل في الجاهلية وذكرت فيه بعثة النبي قيل في الإسلام، وأضيف للشعر الجاهلي ليثبت صحة هذه القضية أي أن الكهان والرهبان كانوا ينتظرون ظهور نبي عربي.

– أما النوع الآخر من الشعر المنحول فهو الذي « أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن فقد انطقوا الجن بضروب من الشعر، والغرض من هذا الانتحال إنما هو إرضاء

[1] ـ المصدر السابق ، ص ٨٤ .
[2] ـ المصدر نفسه ، ص ٣٩١ .

حاجات العامة الذين يريدون المعجزة في كل شيء، ولا يكرهون أن يقال لهم إن من دلائل صدق النبي في رسالته أنه كان منتظرا قبل أن يجيء بدهر طويل.

– ونوع آخر من تأثير الدين في نحل الشعر، اعتماد القصاص على القرآن فيما انتحلوا من الأخبار و الأشعار التي تضاف إلى الرهبان، فالقرآن يحدثنا بأن اليهود و النصارى يجدون النبي مكتوبا عندهم، إذن يجب أن نخترع القصص وما يتصل بها من الشعر ليثبت أن الرهبان كانوا يتوقعون بعثة النبي»[1]

ولأن العرب أرادوا أن يكونوا السباقين في كل شيء لذلك اخترعوا القصص ليثبتوا أنهم كانوا على دراية ببعثة النبي، وأن رهبانهم وكهانهم لم يخطئوا التقدير.

ومن تأثير الدين أيضا في نحل الشعر، عند ظهور الحياة العلمية عند العرب ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب فأرادوا بذلك أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن، مذكورة في شعر العرب ليثبتوا أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها. [2]

ثم يتحدث عن المسيحية و اليهودية فيقول: " ليس من المعقول أن ينتشر هذا الدينان في البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر في الشعر العربي قبل الإسلام وقد حملت العصبية العربية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر، فالأمر كذلك في اليهود و النصارى تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين فنحلوا كما نحل غيرهم."[3]

يرى طه حسين بأن العرب ليثبتوا بأن شعرهم عربي انتحلوا أشعارا تتضمن ألفاظا مستقاة من القرآن، وبما أن القرآن كتاب عربي فلا يوجد أحسن منه دليلا قاطعا على

---

[1] ـ المصدر السابق ، ص ٨٥ .
[2] ـ المصدر نفسه ، ص ٨٦ .
[3] – المصدر نفسه، ص٣٩١.

صدقهم، ثم يتحدث عن المسيح واليهود فيشير إلى أنهم أيضا أهل عصبية كغيرهم فانتحلوا أشعارا كما نحل غيرهم، قد يكون المقصود من إشارة هذه هو تأكيد الانتحال عند العرب فعممه حتى لا يتهم.

– **القصص:** ظهر في عصر بني أمية وبني العباس فئة من الناس يروون القصص والأخبار، وليدعموا كلامهم كانوا في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم، ويجعلون منها دليلا على مواقفهم المختلفة فيه، وكانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث و الأخبار و يلفقونها وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها.

– **الشعوبية:** يرى "طه حسين" بأن للشعوبية الأثر الكبير في وضع الشعر ونحله فقد نحلو أخبارا وأشعارا يذكرون فيها عيوب العرب، ليحطوا من قيمتهم وينسبونها إلى الجاهليين و الإسلاميين واضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل، الإسراف فيه. وكان خصوم الشعوبية يدافعون عن العرب فيضعون أشعارا تمجد العرب وترفع من أقدارهم[1].

– **الرواة:** وينقسم الرواة إلى قسمين: العرب وهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب والموالي متأثرون بما يتأثر به الموالي من تلك الأسباب العامة، وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى. ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي وجعلت حظه من الهزل عظيما، مجون الرواة وإسرافهم في اللهو والعبث وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين و تنكره الأخلاق[2].

لقد كانت الشعوبية تنحل من الشعر كلما من شأنه أن يحط من قيمة العرب، وكان الرواة من الموالي يفعلون الأمر ذاته فليس للعربي من سبيل إلا أن يدافع عن نفسه فينحل من الشعر ما يرفع قيمته وقدره.

–

[1]– المصدر السابق، ص٣٩٢ .

[2]– المصدر نفسه، ص ٣٩٣ .

أوجه الاختلاف:

أ- اعتزاز الجاحظ بعربيته و ميل طه حسين للغرب:

يختلف كل من "طه حسين" و "الجاحظ" في مواقفهما تجاه العرب و العربية، وعلى الرغم من كون الجاحظ أسود البشرة، وتشكيك الكثير من الرواة في عروبته، إلا أن المؤرخين أكدوا انتماءه للعرب، فهو لا يترك مجالا إلا ويعلي فيه من شأن العرب ويدافع عنهم . ويذهب السندوبي إلى الزعم بأنه « لو كان في دم الجاحظ شيء قليل أو كثير من دم الأجناس غير العربية لرأيناه في رأس الشعوبية»[1].

و لكننا نرى أن "الجاحظ" في كتبه يدافع عن العرب، بل هو شديد العصبية للعرب فقد عرف بمواقفه القوية المناهضة للشعوبية و المدافعة عن العرب والعروبة، ولقد وجد "السندوبي" لهذه المسالة الهامة حلا معقولا يعفيه من كل جدال، فعندما يهاجم "الجاحظ" في رسالة " بني أمية" الأمويين ومن دعاهم بالنابتة بقوله: «... ثم قرنوا العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقي دينا إلا أفسدته ولا دنيا إلا أهلكتها و هو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم و العرب، وقد نجمت من الموالي ناجمة ونبتت منهم نابتة، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا».[2]

لقول النبي صلى الله عليه و سلم: " مولى القوم منه " ولقوله: " الولاء لحمة كلحمة النسب و لا يوهب.

قال: «" فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب ولما حول ذلك إلى العرب صارت العرب أشرف منهم، قال: فنحن معشر الموالي. بقديمنا في العجم أشرف من العرب، و بالحديث الذي صار لنا في العرب اشرف من العجم وللعرب

[1]- حسن السندوبي، المرجع السابق، ص ٩.

[2]- الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص٢١.

القديم دون الحديث، ولنا خصلتان جميعا وافرتان فينا،وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيا بولائه. »"[1]

ويستنتج "الجاحظ "بقوله:" وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك وهو مقر أنه صار شريفا بعتقك إياه ؟ "ومن خلال هذا القول يتبادر لأذهاننا بأن هذا الكلام لا يصدر إلا عن عربي، يدافع عن بني جلدته، متعصب لعربيته ومعتز بها و "الجاحظ" نفسه ألف رسالة أسماها «"التسوية بين العرب و العجم "، كما ألف رسالة أخرى أسماها " العرب و الموالي"يجيب بها من عاب الرسالة المذكورة بقوله: " وزعمت أني بخست الموالي حقوقهم كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم ».[2]

إن كل ما قيل ينفي الشك في عروبة "الجاحظ" فكيف لغير العربي أن يدافع بهذه الجرأة عن كل ما هو عربي، ويفرد المؤلفات ليعلي من شأن العرب، فهذه الآراء تؤكد أمرا واحدا هو اعتزاز الجاحظ بأصله العربي.

وإذا كان "الجاحظ" قد نصب نفسه للدفاع عن العرب فقد وجد فيهم خصلتين أساسيتين هما: الفصاحة التي أطراها في كتاب البيان و التبيين، و الكرم الذي أطراه في كتاب البخلاء، فذلك لأن انتسابه إلى العرب كان من القدم بما يجيز له أن يعتبر نفسه عربيا حقيقيا.

وفي الزاوية المقابلة نجد "طه حسين" على الرغم من كونه عربي ذو أصول عربية لكنه شديد الميل للغرب، وقد ذكر بعض العلماء أن لطه حسين مواقف دافع فيها عن أوروبا و الغرب ضد قومه العرب و المسلمين و خاصة في المغرب و سورية[3].

[1]– المصدرالسابق، ص ٩٨.

[2]– حسن السندوبي، المرجع السابق، ص ٩.

[3] ـ محمود مهدي الإستنبولي ، المرجع السابق ، ص ٣٩٦ .

رأى أن الفرنسيين لم يستطيعوا إخضاع شعوب شمال إفريقيا بسبب همجيتهم وتوحشهم، وهو بذلك يرى بأن العرب متخلفين و للغرب الفضل في تطورهم، كما أن "طه حسين" تأثر بالفكر الفرنسي أيما تأثر فقد كان بالنسبة له أكثر من مدرسة كان جزءا من حياته وجزءا من إنتاجه، فمن خلال قراءة ما كتب عن فرنسا وعن أدب فرنسا، وعن تاريخ فرنسا تقتنع بأن هذا الأثر لا ينتجه إلا من كان فرنسيا فكرا و عقلا وثقافة و إحساسا، ولم يكن طه حسين متأثرا بهذا الفكر وإنما استطاع أن يكون مؤثرا وفاعلا ايجابيا ومنتجا.[1]

إن أفكار "طه حسين"، وحتى مؤلفاته تدل على إعجابه الكبير بالغرب و انبهار بثقافتهم لقد عاد "طه حسين" محملا بمجموعة من الأفكار التي أخذها من الغرب وأراد أن يطبقها على التراث العربي فكانت محاولة لتغيير منطلق الفكر الإسلامي « لقد ضرب حركة اليقظة الإسلامية بإدخال مجموعات مختلفة من الأفكار والآراء الغربية اليونانية و الباطنية والإلحادية و الإباحية في مختلف المجالات، وكانت أداته إلى ذلك الصحافة و التأليف و المحاضرة والعمل في الجامعة ووزارة المعارف وفي الأحزاب السياسية».[2]

و أهم ما يعتمد عليه "طه" في نشر الأفكار الغربية هي الأحزاب السياسية والصحافة فهما المجال الذي يتحرك فيه من أجل حملته ومواجهته المعارضة.

ولقد قدم في هذا الإطار وخلال سنوات طويلة أكثر من أربعين عاما هذه السموم:

١/اتهم العرب بأنهم من أحرقوا مكتبة الإسكندرية، ونشر تقرير المستشرق "جويفيني" في جريدة السياسة يعد واحد من مؤامرات المستشرقين، وقد واجه هذه الشبهة شيخ العروبة "أحمد زكي باشا" مواجهة واضحة كشفت زيف "جويفيني" و "طه حسين" ووقف "طه حسين" موقفاغيرلائق.[3]

---

[1] - المرجع السابق ،ص ٣٩٦ .

[2] – المرجع نفسه، ص ٤٠٣.

[3] – المرجع نفسه، ص١٣٩.

من أستاذه الذي كان له عليه فضل العطف في المرحلة الأولى من حياته، وقد سجل طه حسين موقفه في وضوح فيما بعد

يبدو أن "طه حسين" لا يدع مجالا إلا ويحارب فيه العرب، ويقف ضدهم، فاتهامه إياهم بحرق المكتبة يجعل بقية الشعوب ينظرون إليهم على أنهم غير متحضرين، ولا نعتقد أن عربيا محبا لامته يقف هذا الموقف، بل ويؤكد على رأيه بدليل استشراقي.

٢/ إحياؤه للشعر الخارج عن الأخلاق: المجون والغزل المذكر، الهجاء... وغيرها وقد بدا الحديث عنهم في هالة من تكريم حول" أبي نواس"، و"بشار" و"الضحاك" و غيرهم وجدد آثارهم و أذاع آراءهم واهتم بحياتهم، وقد واجه هذا كثيرون في مقدمتهم "إبراهيم عبد القادر المازني".[١] قد يكون إحياؤه لهذا النوع من الشعر ليظهر للعالم بأن العرب يهتمون بالأمور الغير أخلاقية، وهذا في اعتقادنا تقليل من شأن العرب.

٣/ إثارة شبه خطيرة على أن «القرن الثاني الهجري كان عصر شك و مجون وقد تصدى له كثيرون فنقضوا رأيه في مقدمتهم المؤرخ الإسلامي رفيق العظم. »[٢].وهذا ادعاء خطير لأن في هذه الفترة كثر عدد من يكتب العلم.

٤/ نادى بفصل الأدب العربي عن الفكر، وذلك من أجل دفعه إلى ساحة الاباحيات والشك و غيرها، ودعا إلى ذلك باسم تحريره من التأثير الديني، وقد أخذ ذلك عن الفكر الغربي الذي يختلف عن الفكر الإسلامي الجامع، والذي لا ينفصل فيه الأدب عن القيم الأخرى، فالأدب فيه مع هذه القيم في سبيل بناء الإنسان الرباني والإسلام أساسا هو نظام حياة، ومنهج فكر جامع والأدب جزء منه.[٣]

[١]– المرجع السابق، ص ١٣٩.

[٢]– المرجع نفسه، ص ١٤٠ .

[٣]– المرجع نفسه، ص ١٤١.

أراد "طه حسين" أن يحرر الأدب من أي ارتباط بالفكر متأثرا بالغرب، ولكن لا يمكننا كمسلمين أن نفصل بين الأدب والدين، وقد يكون دافعه أن يجعل الأديب يقع في المحظور.

٥/ رفع من شأن الفرعونية، وفي المقابل أنكر الروابط العربية و الإسلامية وتجاهل أثر اللغة و التاريخ في قيام الأمم.[١]

٦/ المؤامرات المتعددة على القرآن و قد حاول مرارا أن يثير الشبهات حوله كما ادعى بأنه يمثل نمطين نمطا مكيا، ونمطا مدنيا، وأنه متأثر باليهودية، وأنه منقول من الكتب القديمة، وقد كشف الباحثون زيف هذا الإدعاء.

٧/ إضافة إلى مواجهته للإسلام، والقرآن، والنيل من التراث الإسلامي على نحو أواخر، وقد شغلته دائما مسألة القرآن، والإسلام، و العقائد فهو يدعو طلاب كلية الآداب إلى اقتحام القرآن في جرأة، ونقده بوصفه كتابا أدبيا.[٢]

إن الرجل لم يدخر جهدا لبث السموم والشكوك حول التراث العربي عامة والإسلامي خاصة، فقد شجع أدب المجون والجنس والرذيلة وفصل الدراسات الأدبية عن الإسلام بدعوى حرية البحث الأدبي، حتى وصلت به الجرأة إلى الدعوة لدراسة القرآن كباقي الكتب الأدبية.

ب- طريقة تناول الناقدين للشعر المنتحل:

تناول كل من "الجاحظ" و "طه حسين" أبياتا شعرية واعتبرها منتحلة وإذا كان "الجاحظ" أشار إلى بعض الأبيات فقط فإن "طه حسين" تناول شعراء وانتقد شعرهم وأطال في تحليل أبياتهم الشعرية.

[١]- المرجع السابق، ص١٨٢.

[٢]- المرجع نفسه، ص ١٤١.

يشير "الجاحظ" إلى الموضوع و المنحول على ثلاث طرق ، فهو حينا ينسب الشعر إلى شاعر بعينه ثم يشكك في شعره، وهو حينا ثانيا يقطـع قطعا جازما بأن هذا الشعر أو ذاك منحول مصنوع دون إعطاء حجة أو دليل أو برهان، وإنما يرسل القول إرسالا وفي مرات أخرى يورد شعرا ويؤكد بأنه منحول، ثم يورد من الحجج والبراهين والأدلة ما يراه كفيلا بدعم رأيه.

فمن الضرب الأول أنه يقول: قال فلان، ويذكر اسم شاعر بعينه، ثم يعقب عليه بقوله: إن كان قالها. فهو طرح الشك في هذا الشعر و نسبته لهذا الشاعر دون أن يعطي دليلا على صحة قوله.

ومن الضرب الثاني قوله: وفي منحول شعر النابغة:

فَأَلفَيتُ الأَمَانَة لَم تَخُنهَا كَذلِكَ كَانَ نُوحٌ لاَ يَخُونُ[1]

فهو اعتبر أن هذا الشعر منحول دون إعطاء دليل و من الضرب الثالث: أنه أورد أبياتا، زعم بعض الرواة أنها جاهلية، و"الجاحظ" أنكر ذلك ورأى بأنها منحولة، وحجته في ذلك ذكرهم لانقضاض الكواكب، وهذا الأمر لم يكن في الجاهلية البعيدة عن مولد رسول الله صلى الله عليه و سلم بل حدث أول مرة عند مولده أو قبله، فهو بذلك من إعلام ميلاده أو إرهاص له ثم يعقب على هذه الأشعار بقوله: وسنقول في هذه الأشعار التي أنشدتموها ونخبر عن مقاديرها وطبقاتها.[2]

أي أنه سيكشف مواطن الزيف فيها.

---

[1]– ناصر الدين الأسد، المصدر السابق، ص٣٣٣.

٢– المصدر نفسه ، ص ٣٣٣.

–**الدريء**: الكوكب المتوقد المتلألئ.

طنب الفرس.

فقول "أوس بن حجر":

«فَانقَــضَّ كَالـدَّرِيء يَتبَعُــــه نَقــعٌ يَثُورُ تَخَالُـهُ طُنُبـــــا

فهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر "أوس بن حجر" و "شريح بن أوس" ، وقد طعنت الرواة في هذا الشعر ، الذي أضفتموه إلى "بشر بن حازم" من قوله:

وَالعيرُ يُرهِقُهَا الخِبَار وَجَحشُهَا يَنقَضُّ خَلفَهُمَا اِنقِضَاضَ الكَوكَبِ

فزعموا أنه ليس من عاداتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب، ولا بدن الحمار ببدن الكوكب، وقالوا في شعر بشر بن حازم مصنوع كثيرا.[1]

فالأدلة التي يوردها "الجاحظ" مقنعة لأن الشعراء ذكروا أمورا لا تمت للجاهلية بشيء ولم تكن معروفة لديهم وقتئذ، فالكثير من الأمور التي حملتها قصائد الجاهليين لا تنتمي لذلك العصر، فهي أمور حدثت في الإسلام أو إرهاصات لميلاد النبي، وأقل ما يقال عنها من وجهة نظر الجاحظ أنها منتحلة.

كما ذكر "الجاحظ" بأن: "حماد الراوية" كان يصنع القصائد المطولة وينسبها للعرب وهذا لم يكن رأي الجاحظ فحسب لأن حماد معروف بأنه أعلم الأشخاص بأخبار العرب ولكن النقاد أكدوا بأنه يروي شعرا منحولا وهو غير موثوق به. «وذكر الجاحظ أيضا بأن معاصره حماد عجرد قد حذا حذوه، واستن بسنته خلف الأحمر، وقد ذكروا عن الأخير أنه تنسك في آخر حياته، وأراد أن يدل أهل الكوفة على وضعه لـه ليميزوه. عن كـلام العرب، فأبوا عليه لاستحالة ذلك محتجين بأن أكاذيبه كانت قد انتقلت إلى الآفاق»[2].

وقال الإمام "الجاحظ": « إن خلفا هذا أورد على الناس نسيب الأعراب، وهو من أرق الشعر، وما أحراه أن يكون مصنوعا.

---

[1] ـ المصدر السابق، ص ٣٣٣.

[2]– محمد فريد وجدي، المرجع السابق، ص ٦.

وروى "الجاحظ" أيضا أن بعضهم قال لأحد الرواة: إنك تكذب في الحديث فقال: وما عليك إذا كان الذي أزيد فيه أحسن منه، فو الله ما ينفعك صدقه، ولا يضرك كذبه»[1].

لقد اعترف بأنه انتحل الشعر فهو بنفسه أراد أن يدل العرب على وضعه للشعر ولم يكن الجاحظ هو الوحيد الذي شك في مصداقية رواية حماد وخلف للشعر فالثقة فيما رواه كل منهما كانت محل خلاف بين القدماء واتهما بوضع الشعر من قبل الكثير، شكك "طه حسين" في نسب "امرئ القيس"، وحتى في اسمه و كنيته و الأخبار التي دارت حوله، و لم يسلم حتى شعره من هذا النقد، ويرى بأن شعر امرئ القيس من عمل القصاص.

كما يرى « بأن شعر امرئ القيس منتحل لتمثل التنافس القوي الذي كان قائما بين قبائل العرب وإحيائهم في الكوفة و البصرة، وهذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس ويتصل بقصته إنما هو شعر إسلامي لا جاهلي، وأن كل الشعر الذي يتصل بسيرة امرئ القيس إنما هو من عمل القصاص، كما يقول بأنه يجب أن نقف وقفة قصيرة عند الشعر الذي لا يفسر سيرته و لا يتصل بها ».[2]

فهو ادعى بأن شعر "امرئ القيس" موضوع من قبل القصاص ويرى أن قصيدتي "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل "و" ألا نعم الصباح أيها الطلل البالي" هما القصيدتان الوحيدتان اللتان تستحقان العناية، أما بقية شعره فالضعف فيه ظاهر و الاضطراب فيه بين، و التكلف والإسفاف فيه يكادان يلمسان باليد.[3]

ولكنه حين أثنى على قصيدتين لامرئ القيس واتهمه بأن بقية شعره ضعيف وهزيل لم يورد أسبابا لاتهامه هذا.

---

[1]– المرجع السابق، ص ٧.

[2]– ناصر الدين الأسد، المصدر السابق، ص ٣٩٥.

[3]– المصدر نفسه، ص٣٩٦.

ثم يورد بعد ذلك القصة التي تداولتها كتب الأدب، قصة الخلاف بين "علقمة" و"امرئ القيس" وانتصار أم جندب لعلقمة ويدعي بأن القصة لا أساس لها من الصحة،كما يشكك في صحة الأبيات التي قيلت، والقصيدة التي يجزم "طه حسين" بأنها منتحلة انتحالا هي القصيدة البائية التي أنشأها "امرؤ القيس" يخاصم بها علقمة.

أما قصيدة "امرئ القيس" فمطلعها:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُم جُنـــدُب نَقُّصٌ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَـذَّبِ

وأما قصيدة "علقمة" فمطلعها:

ذَهَبَ مِنَ الهُجرَانِ فِي كُل مَذهَبِ وَلَم يَكُ حَقًا كـل هَذَا التَّجـنُّبِ

يقول طه« يكفي قراءة هذين البيتين لتحس فيهما رقة إسلامية ظاهرة، ويشكك "طه حسين" في كل أحداث هذه القصة، فعلقمة لم يفاخر امرئ القيس وأن أم جندب لم تحكم بينهما».[1]

والقصيدتين ليستا من الجاهلية في شيء، فكلاهما توحيان بأنهما تنتميان إلى العصر الإسلامي لأننا نلمس فيهما تلك الرقة الإسلامية على حد قوله، فهي من صنع علماء اللغة، قد لا يكون هذا دليلا قاطعا لنعتبر هذه الأبيات منتحلة وإن لمسنا فيها شيئا من الإسلام، فالعرب تميزوا بصفات كالجود والكرم والشهامة قبل ظهور الإسلام، فما الغريب في وجود هذه الرقة الإسلامية.

يواصل "طه حسين" اتهامه لشعراء الجاهلية ويؤكد في كل مرة بأن شعرهم منتحل ومن هؤلاء الشعراء: المهلهل حيث يرى طه بأن شعره الموزون وقواعد النحو وأساليب النظم الفني التي اتسم بها شعره لا تدل على القدم في شيء، و إنما تدل على أن شعره منتحل.[2]

[1]- طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص٢٥١.
[2] ـ طه حسين ، ، حديث الأربعاء ، ص ١٧٤ .

أما عن "عمرو بن كلثوم"، فيرى "طه حسين" بأن القصة التي حكيت عن نشأته و مولده وعن مولد أمه إنما هي منتحلة، كما تمتاز قصائده برقة اللفظ وسهولته مما يجعلها سهلة الفهم على أقل الناس حظا في اللغة العربية، فهي بعيدة كل البعد عن لغة الشعر الجاهلي مما يدل على أنها منتحلة.[١]

وعن "زهير" يقول "طه حسين": بأن في بعض شعره أمور تتصل بالدين، فهو يذكر البعث في مطولته المشهورة يقول:[٢]

فَلاَ تَكتُمَنَّ الله مَـا فِي نُفُوسِكُم لِيَخفَى وَمَهمَا يَكتُم الله يَعلَـمُ

يُؤَخرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَـابٍ فَيُدَّخَر لِيَومِ الحِسَابِ أَو يُعَجلُ فَيَنتَقِمُ

و يؤكد طه بأن القدماء أنفسهم تنبهوا إلى شعر حمل على زهير، فيه ذكر مفصل لأمور الدين ويشير إلى الأبيات البائية التي أنكر الأصمعي بأن تكون لزهير، والتي أولها:[٣]

أَلاَ لَيتَ شِعرِي هَل يَرَى النّاسُ مَا أَرَى مِنَ الأَمرِ أَو يَبدُولَهُم مَا بَدَالِيَا

وَإنــي مَتَى أهبِطُ مِنَ العَـارِضِ تَلعَةً أَجِدُ أَثَرًا قَبلِي جَدِيدًا وَ عَافِيًا

إلَـى حُفرَة أُهدِي إِلَيهَا مُقِيمَـة وَيَحُثُ إِلَيهَا سَائِقٌ مِن وَرَائِياَ .

وهو باتهامه لهؤلاء الشعراء المعروفين والذين ذاع صيتهم في ذلك العصر، وبقي الناس يقرؤون أشعارهم ويفتخرون بها إلى يومنا هذا، قد هاجم كل الشعر الجاهلي لأنه ضرب مواطن القوة فيه.

و يعدل بعد ذلك إلى نوع آخر من الفلسفة الدينية:[٤]

أَلَم تَرَى أَنَّ الله أَهلَكَ تُبَّعَـا وَ أَهلَكَ لُقمَانَ بنَ عَاد وَ عَاديـا

[١] ـ المصدر السابق ، ص ١٧٤ .
[٢] ـ زهير بن أبي سلمى ، شرح علي حسين قاعور ، ديوان زهير ، ص ٤٤ .
[٣] ـ المرجع نفسه ، ص ١٤٠ .
[٤] ـ المرجع نقسه ، ص ١٤١ .

وَأَهلَكَ ذَا القَرنَينِ مِن قَبل مَا تَرى وَفرعَونَ جَبَارًا طَغَى وَ النَّجَاشِيَا

يقول "طه حسين": وللشاعر في هذه الأبيات طريقتين مختلفتين في الفلسفة، إحداهما طبيعية يسيرة تلائم تفكير أصحاب السذاجة من حكماء البادية والأخرى دينية كأنها أخذت من القرآن أخذا و الواضح أن شعرا دينيا قد نسب إلى زهير. [1]

يشير "طه" إلى أن شعر "زهير" فيه نوع من الفلسفة، فقد جمع هذا الشاعر بين الحكمة التي عرفت في البادية وأمور دينية، قد لا يكون هذا الاتهام صائبا فالحكمة قد تتوفر في هذا الشاعر لأنه بدوي، وربما كانت هذه الأبيات نتيجة لذكائه وتأمله.

وهكذا ترى أن "طه حسين" قد انتقل بين شعراء معروفين، واتهمهم بالانتحال أو بالأحرى اتهم الرواة و القصاص على نسبة شعر منتحل لهم و تعمق في الدراسة فهو يبدأ في التحقيق من مولد الشاعر و نشأته ثم إلى أبياته، لينتقد كل ما يخص هذا الشاعر في حين نجد "الجاحظ" اكتفى ببعض الأبيات، واتهم أصحابها بالانتحال ويتفق مع "طه حسين" في كون أن الرواة هم الذين كانوا يضعون القصائد المطولة و ينسبونها للعرب.

جـ- المنهج المتبع في دراسة قضية الانتحال:

يبدو أن نظرية الانتحال التي طرحها "ابن سلام الجمحي"، وجدت اهتماما من قبل الجاحظ، فأثار الشكوك حول شعر "المعمدين"، حيث يذكر بأن الرواة أضافوا شعرا للمعمدين، وصنعوا أخبارا حولهم، دون أن يذكروا شهادة قاطعة على ذلك، ولا دلالة قائمة ونظرية الشك لديه رسختها وجهة نظره حول اللفظ والمعنى، و التي قادته إلى علاقة الشعر بالمتلقي. [2]

[1] ـ طه حسين ،حديث الأربعاء ، ص ١١٥ .
[2] ـ قيس كاظم الجنابي ، مقال البيان و التبيين بوصفه ، نقد شعريا ، ص ١ .

يرى "الجاحظ "بأن الانتحال يعود إلى أسباب منها العصبية، تخليد المآثر، ضياع الأشعار عن طريق أصحابها، لأنهم غير معروفين فينسبونها لمن يفوقهم شهرة حتى تشتهر يقول الجاحظ: "فمن شأن الأيام أن تظلم المرء أكثر محاسنه ما كان تابعا فإذا عاد متبوعا عادت عليه محاسن من غيره بإضعاف ما منعه من محاسن نفسه حتى تضاف إليه... ومن خيار القصائد إن كان شاعرا مما لا أمارات لها ولا سمات عليها فكر من يد بيضاء وضيعة غراء ضلت، ضاع للتابع قبل أن يكون متبوعا".

فقد عالج "الجاحظ" إذا قضية الانتحال، وحاول أن يكمل منهج "ابن سلام" في التمييز بين الشعر الصحيح و المنحول، "واعتمد في ذلك على شهادة الرواة، وعلى مبدأ تفاوت الشعر شأنه في ذلك شأن ابن سلام". [1]

« لكنه أضاف على ابن سلام دليلا جديدا، وهو الدليل الداخلي، فنراه يروي قول الأفوه الأودي:

كَشِهَاب القَذفِ يَرمِيكُم به فَارسٌ فِي كَفه للحَربِ نَارُ

وعلق الجاحظ على هذا البيت بقوله:

وبعد، فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف و رجم وهو جاهلي ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون» [2].

والملاحظ أن "الجاحظ" كان حادا في نقده أحيانا، وهذه الحدة مصحوبة بالسخرية والتهكم فقد علق على قول الشاعر:

«لاَ تَحسبَنَّ المَوتَ مَوتُ البَلَى فَإنَّمَا المَوتُ سُؤَالُ الرجَـال

كِلاَهُمَـــــــا مَوتٌ وَلَكِـنَّ ذَا أَفظَعُ مِن ذَاكَ لَذُلُّ السُّـؤَال

[1] ـ المرجع السابق ، ص ، ١ .

[2] – الجاحظ، الحيوان، ٦/ ٣٧٩.

و أنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا».[1]

لقد واصل الجاحظ دراسة قضية الانتحال التي جاء بها ابن سلام، وأضاف إلى الوسائل التي ذكرها ابن سلام بعض الأدلة الجديدة منها الدليل الداخلي، وكان يوازن بين معنى البيت و بين ما كان معروفا في الجاهلية أو غير معروف، ومن خلال هذه الموازنة كان يحكم على الشعر إذا كان منحولا أو غير منحول، كما لا ننسى بأن أهم مميزات منهج الجاحظ الشك والذي سبق ذكره في الفصل الأول، والملاحظ أنه طبق هذا المنهج حين أثار الشكوك حول بعض القصائد، وأكد أن الرواة هم من أضافوها لغير قائليها.

أما "طه حسين" فقد اتبع منهج "ديكارت" في بحثه عن الحقائق، ويرى بأنه المنهج الأمثل والذي يتماشى مع هذا العصر.

يقول "طه حسين": «"...أريد أن اصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين و الفلسفة يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج و أقومها، وأحسنها أثرا، وأنه قد جدد العلم و الفلسفة تجديدا فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي و تاريخه أن ننسى قوميتنا و كل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وما يتصل به ، وأن ننسى ما يضاد هذه القومية.

وما يضاد هذا الدين يجب أن لا نتقيد بشيء، ولا نذعن لشيء إلا لمناهج البحث العلمي الصحيح، ذلك أننا إذا لم ننس قوميتنا و ديننا، وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف».[2]

كما يرى «بأن القدماء كانوا مسلمين مخلصين في حب الإسلام، فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي، ولا لفصل من فصول الأدب أو لون

[1]– الجاحظ، الحيوان، ٣/ ٣٥.

[2]– محمود مهدي الاستانبولي، المرجع السابق، ص ٥٥.

من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام و يعزه و يعلي كلمته، فما لاءم مذهبهم أخذوه و ما نافره انصرفوا عنه انصرافا، أو كان القدماء غير مسلمين فتأثروا في حياتهم العلمية بمثل ما تأثر به المسلمون الصادقون، تعصبوا على الإسلام و نحوا في بحثهم العلمي نحو الغض منه، والتصغير من شأنه، ولو أن القدماء استطاعوا أن يفرقوا ببين عقولهم و قلوبهم، وأن يتناولوا العلم على نحو ما يتناوله المحدثون، لا يتأثرون في ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين لتركوا لنا أدبا غير الأدب الذي نجده بين أيدينا، فلو أن الفلاسفة ذهبوا في الفلسفة مذهب ديكارت منذ العصور الأولى لما احتاج ديكارت أن يستحدث منهجه الجديد».[1]

لقد فتن "طه حسين" بمنهج الشك الديكارتي فأراد أن يخضع كل عمل أدبي لهذا المنهج حتى القرآن، لأنه يرى بأن على الإنسان أن يفصل بين العقل والعاطفة فعاطفة القدماء هي التي جعلتهم منغلقين فلم يدعوا مجالا للبحث ولولا تعصبهم هذا لتركوا لنا أدبا غير هذا الذي هو بين أيدينا اليوم.

يتفق كل من "الجاحظ" و"طه حسين" في إتباعهما لمنهج الشك، والشك الجاحظي لا يختلف عن الشك عند "ديكارت"، ولكن اختلفا في توظيفه فإذا كان "طه حسين" طبق منهج الشك في كل الأمور بما فيها العقيدة، فإن "الجاحظ" سبقه في ذلك لكنه لم يطبقه على كل المواضيع.

د- الانتقادات الموجهة للجاحظ وطه حسين:

تعرض "طه حسين" لحملة شعواء، وفتحت عليه أبواب النقد على مصرعيها حتى أنه أتهم في عقيدته، وفي المقابل لم يتعرض "الجاحظ" للنقد، إلا ما ذكره "طه حسين" عن تأليف الجاحظ لكتاب العصا للرد على الشعوبية، و اتهمه بالانتحال من أجل الانتصار للعرب.

[1]- طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص ٦٩.

يرى "طه حسين" بأن من أسباب انتحال الشعر الشعوبية، ويرى بأن "الجاحظ" أشار إلى ذلك في كتابه " البيان والتبيين حين ذكر اعجاب الفرس بآثار الأمم الأعجمية وفضلوها على آثار العرب، فهم يعجبون بخطب الفرس وسياستهم، وعلم الهند وحكمتها ومنطق اليونان وفلسفتهم وهم ينكرون على العرب أن يكون لهم شيء يقارب هذا، لذلك أنفق "الجاحظ" على حد قول "طه حسين" ما يملك من قوة ليثبت أن العرب يستطيعون أن ينهضوا لكل هذه المفاخر الأعجمية وأن يأتوا بخير منها[١].

ولعل أصدق مثال لهذه الخصومة العنيفة بين العلماء و الموالي هذا الكتاب الذي كتبه الجاحظ في " البيان و التبيين " وهو كتاب "العصا" وأصل هذا الكتاب أن الشعوبية كانوا ينكرون على العرب الخطابة وينكرون على خطباء العرب ما كانوا يصطنعون أثناء خطابتهم من هيئـــة وشكـل، وما كانـوا يتخذون من أداة، وكانوا يعيبون على العرب اتخاذ العصا و المخصرة وهم يخطبون.

فكتب "الجاحظ" كتاب العصا، ليثبت بأن العرب أخطب من العجم، فالعصا محمودة في القرآن والسنة، واتخاذ العرب للعصا أثناء خطبهم لا ينقص من قيمتهم شيئا، ولا يغض من فنهم الخطابي.[٢]

«ومن هنا مضى "الجاحظ" في تعداد فضائل العصا حتى أنفق في ذلك سفرا ضخما ومن أمثلة ذلك قوله : كانت العرب تخطب بالمخاصر، وتشير بالعصا والقنا حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسها، ولذلك قال الشاعر:

فِي كَفــــهِ خَيْزرَان رِيحُـهُ عَبـِق   من كف أَروَعِ في عَرِنينِه شِمَم
يَغُضُّ حَيَـاءً وَيَغفَى مِن مَهَابَتِـه   فَمَــــا يُكَلمُ إِلاَّ حِيـنَ يَبتَسِمُ

[١]- المصدر السابق، ص١٣١.
[٢]- المصدر نفسه، ص ١٣٢.

إن قَـالَ قـال بِمَا يَهوَى جَمِيعُهُم وَإن تَكَلَّمَ يَومًا سَاخَت الكَلِـمِ

يَكـَادُ يُمسكـه عِرفَانٌ رَاحَتـه رُكنَ الحَطِيمِ إذَا مَاجَاءَ يَستَلِم»[1]

يرى "طه حسين" بأن "الجاحظ" وأمثاله من الذين كانوا يعنون بالرد على الشعوبية مهما يكن علمهم، ومهما تكن رواياتهم، لم يستطيعوا أن يعصموا أنفسهم من الانتحال الذي كانوا يضطرون إليه اضطرارا ليسكتوا خصومهم من الشعوبية، فليس من اليسير أن نصدق كل ما يرويه الجاحظ من الأشعار و الأخبار حول العصا و المخصرة ويضيفه إلى الجاهليين ونحن نعلم حق العلم أن الخصومة حين تشتد بين الفرق والأحزاب فأيسر وسائلها الكذب كانت الشعوبية تنتحل من الشعر ما فيه تحقير للعرب وغض منهم وكان خصوم الشعوبية ينتحلون منه الشعر ما فيه ذود عن العرب، ورفع لأقدارهم[2].

تناول "الجاحظ" موضوع الانتحال واتهم بعض الشعراء بالانتحال، كما ميز بين الأشعار المنتحلة وغير المنتحلة متبعا منهج "ابن سلام"، وأورد الكثير من الأبيات التي اعتبر أنها منحولة و منسوبة لغير قائليها.

ولكن "طه حسين" يتهمه بأنه لم يستطع أن يعصم نفسه من الانتحال، ثم يشير إلى أن الجاحظ ألف كتاب العصا بسبب تعصبه للعرب ورد على الشعوبية، ربما يريد منا أن لا نصدق كل ما كتبه "الجاحظ" لأنه كتبه بدافع العصبية، فالجاحظ انتحل أخبارا من أجل إعلاء شأن العرب.

إن تعصب "الجاحظ" للعرب وذكره لكل ما فيه ذود لهم ورفع لقيمتهم ومحاولته إعلاء شأنهم لا يؤكد اتهام "طه حسين" له بالانتحال.

---

[1]– الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، ١/٣٧٠.

[2]– طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص ٥٥.

أما عن "طه حسين" فقد أثارت آراؤه ضجة كبيرة بين العلماء و المفكرين لتتحول إلى حملة شعواء، وحرب هوجاء ضده، فلم يتردد كثير من الكتاب و النقاد بالرد عليه وكانت هذه الردود عنيفة وصلت إلى اتهامه في عقيدته.

- نقد العلماء لمنهج طه حسين:

أعلن الدكتور منهجه في وضوح حينما أعلن بأنه يريد أن يطبق منهج " ديكارت" في الأدب، ليبحث عن حقائق الأشياء، قام الكثير من النقاد ينكرون على "طه حسين" فهمه لمنهج "ديكارت"، ويردون عليه في صفحات طويلة فمنهج "ديكارت" يتخذ من الشك وسيلة لليقين، ولم يكن منهج شك للشك ذاته وإنما يتمثل في ألا يقبل المرء أمرا على أنه حقيقة إلا إذا وجـدت الدلائل البينة على صحته، كمـا أن "ديكارت" كان يسلـم بوجـود أشياء يجادل فيها، ولا يقبل المعلومات مهما كانت صفتها، وقوة الثقة الملازمة لها ماعدا الحقائق الخاصة بالعقيدة فإنه لم يطبق هذه الطريقة، وهذا يظهر ايجابية المنهج، لكن طه حسين طبق منهج الشك حتى على العقيدة مما جعل العلماء يتهمونه بعدم فهمه للمنهج[1].

ويرى آخرون بأنه لم يلتزم المنهج الذي أعلن أنه سيصطنعه، فقد جمع من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاف والعوامل التي حملت عليه، وبالمطامع التي دفعت إليه، ولم يسر في ذلك على ما يقضي عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على إصدار الأحكام جزافا.[2]

فهو بذلك لم يطبق منهجه الذي ذكره ومضى في إصدار الأحكام دون أن يكلف نفسه مهمة البحث والنقد.

يرى السيد "محمد الخضر حسين" بأن "طه حسين" شق عن صدره للقراء و أراهم ما فيه من نية الخروج عن الأدب إلى الطعن في الإسلام، فالمؤلف أي "طه حسين" شق على

[1]- محمود مهدي الاستنبولي، المرجع السابق، ص٥٥.

[2]- المرجع نفسه، ص ٧١.

صدره للقرآن و أراهم ما فيه من نية الخروج عن الأدب إلى الطعن في الإسلام، لم يفترق عن مرجيليوت إلا في تسليمه بأن هناك شعرا جاهليا فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التي استند إليها "مرجيليوت".[1] وإلى جانب تأثره بديكارت تأثر أيضا بمرجيليوت، من الجيد أن لا يقبل الباحث الأشياء كما هي إلا إذا تحقق منها، هذا ما يدعو إليه "ديكارت" لكن طه حسين بالغ في شكه حتى مس أمورا تتعلق بالدين.

اتهام العلماء لطه حسين: يرى العلماء بأن أخطر أقوال "طه حسين": "للتوراة أن تحدثنا عن "إبراهيم" و"إسماعيل"، و للقرآن أن يحدثنا عنهما، ولكن ورود الاسمين في التوراة والقرآن لا يمكن لإثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القضية التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن الله إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة، ونحن مضطرون أن في هذه القضية نوع من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود و العرب من جهة، وبين الإسلام و اليهود و القرآن و التوراة من جهة أخرى."[2]

فإنكاره نبوة "إسماعيل" و"إبراهيم" وتكذيبه للقرآن، يعد من أقسى ما كتبه، ومن هنا أطلق عليه "الرافعي" اسم "المبشر" و"أبا مرجليوت" كما سمى فرنسا وطن طه حسين الجديد.

إن كل "المستشرقين" الذين أخذ عنهم "طه حسين"، وتأثر بهم من أعداء الإسلام والمسلمين ودكتور كطه حسين من غير الممكن أن لا يكون على دراية بأفكار هؤلاء المستشرقين ونيتهم المبيتة في طمس الهوية الإسلامية.[3]

إن تأثر "طه حسين" بالثقافات الأخرى وانفتاحه على الثقافة الغربية ليس أمرا سيئا ولكن تأثره بالمستشرقين وخاصة أعداء الإسلام فهذا هو السلبي فكيف لأديب مثله أن يذهب وراء هذه الأفكار التي تمس عقيدته، كما أن تأثره بمنهج الشك لدى ديكارت ليس من السوء

[1]– محمد الخضر حسين، نقض كتاب في الشعر الجاهلي، ص١٧.

[2]– طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص٧٠.

[3]– إبراهيم عوض، المرجع السابق، ص١٠٦.

بمكان إذا نظرنا إليه من زاويته الايجابية، والمتمثلة في عدم قبول الحقائق إلا إذا قامت عليها الدلائل، والشك للوصول إلى اليقين شرط أن لا يمس هذا الشك أمور الدين والعقيدة لأنها أمور لا يمكن لأي كان أن يطرح مجالا للشك والريب فيها، فطه حسين إن أصاب في اختياره لهذا المنهج، فقد اخطأ في تطبيقه على جوانب عقائدية كما يعاب عليه تأثره بمستشرقين معروفين بخلفيتهم ونواياهم المتمثلة في طمس الهوية الإسلامية.

لقد بدأت المعركة التي فجرها صدور كتاب طه حسين " في الشعر الجاهلي" فقد تعالى الصراخ للمطالبة بمصادرة الكتاب، وتحولت إلى موضوع سياسي تدخل فيه رجال السياسة وحتى رجال الدين.

دينيا:

اجتمعت اللجنة بأمر من شيخ جامع الأزهر لفحص كتاب طه حسين، وبعد الاطلاع انتهت اللجنة إلى:

– إنكار الشعر الجاهلي، وأنه منتحل بعد الإسلام لأسباب زعمها وقال: إنه بنى بحثه على التجرد من كل شيء حتى عن دينه و قوميته عملا بمذهب "ديكارت".

– الكتاب كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة.

– الكتاب وضع في ظاهره لإنكار الشعر الجاهلي، ولكن المتأمل قليلا يجده دعامة من دعائم الكفر.

– نكرانه لهجرة سيدنا "إبراهيم" مع ولده "إسماعيل".

– تطلب اللجنة من الحكومة وضع حد لهذه الفوضى الإلحادية.[1]

[1] -مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ١٢٩

لقد تلقى "طه حسين" ردود فعل عنيفة من لجنة العلماء، فقد تحول الكتاب من موضوع أدبي وخرج عن دائرة الأدب ليمس رجال الدين، ويصل حتى لرجال السياسة.[1]

سياسيا:

– لم يسلم "طه حسين" من الانتقادات الموجهة إليه فقد ثارت ثائرة النقاد، وأعلنوا عليه حربا،وتعالت أصواتهم فطلبوا من الحكومة إجراءات خاصة: منها رفع دعوى جنائية على المؤلف.

– إبادة كتاب في الشعر الجاهلي.

– إحالة الدكتور "طه حسين" إلى النيابة.

– إلغاء وظيفته.

لم يتراجع "طه حسين" عن موقفه، وظل شجاعا، ولم تنته الحملة عليه وعلى كتابه بقرار النيابة، بل استمرت الجهات المناوئة له محاربته، وتعدت مجال السجال حتى وصلت إلى إخراجه من الجامعة عام ١٩٢٣م، والاستغناء عنه في جريدة الجمهورية، وتم التضييق عليه إلى أبعد الحدود، بحيث تسميها زوجته بسنة "المجاعة" وتضيف بأن أعداءه كانوا يريدون "سحقه حقا"، فقد أرادوا أيضا إحراق كتبه، وأغرقوه بالشتائم وحاولوا أن يحرموه من كل وسيلة للعيش فمنعوه من بيع الصحيفة التي كان يصدرها، وأنذروا البعثات الأجنبية في مصر بأن تكف على تقديم عروض العمل، و قد دامت هذه المحنة حتى عام ١٩٣٤م.[2]

[1] المرجع السابق ،ص ١٣٠ .

[2] – المرجع نفسه، ص ٤٥.

هـ- ردة فعل كل من الجاحظ و طه حسين تجاه النقد الموجه إليهما:

بالنسبة للجاحظ لم تكن له ردة فعل فهو لم يتعرض للنقد، كما أن آراءه لم تكن بتلك الخطورة التي كانت عليها أراء "طه"، فهو حين ذكر قضية الانتحال اتهم بعض الشعراء بالانتحال، كما ذكر أبياتا واعتبر أنها منتحلة لكن ذكره هذا لم يكن نكرانا للشعر الجاهلي بأكمله، بينما فتحت على "طه حسين" أبواب الحرب بمصرعيها، فلم يسلم من الانتقادات كما أن قضيته باتت أمرا سياسيا نظرا لخطورتها.

بعد الحملة العنيفة التي أثيرت حول كتاب "في الشعر الجاهلي" اضطر "طه حسين" إلى تغيير بعض الآراء الواردة فيه، فجاء باسم آخر هو "الأدب الجاهلي" حذف منه و زيد فيه، أما المحذوف منه فيتمثل قي الأجزاء التي كانت سبب حدوث تلك الفوضى، لكن" طه حسين" لم يذكر أسباب الحذف، و صمته عن ذكرها هي محاولة للتخلص من الفضيحة فهو لم يحذف مختارا إنما مضطرا[1].

«إن مؤلف الشعر الجاهلي رجل قوي و ليس من السهل عليه أن يتراجع وحتى في كتابه حديث الأربعاء الذي حمل آراء جديدة للدكتور في هذا الشعر كان من الذكاء و اليقظة بحيث لم يجعل كلامه في حديث الأربعاء مصادما كل المصادمة على وجه صريح كلامه في كتابه الأول فكتابه الشعر الجاهلي أنكر أغلب الشعر الجاهلي بينما في حديث الأربعاء اكتفى بالشك في عدة أبيات».[2]

فتراجع "طه حسين" كان اضطراريا فهو لم يتراجع كليا عن آرائه بل بقي يدافع عن بعض الآراء حتى بعد هذه الحرب المعلنة عليه.

و على الرغم من كل هذا فإن البعض دافع عن" طه حسين" و ألبسه ثوب الضحية ففي كتاب دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي نجد صاحب الكتاب

[1]- محمد أحمد الغمزاوي، النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، ص٢.

[2]- محمد رجب البيومي، النقد في الشعر، ص ١٢١.

يقول:«...إن ما قاله عن انتحال الشعر الجاهلي و فساد رواته و رواياته و ما أضيف إليه أو حذف منه سبق أن قاله و اتبع القول فيه علماء الأدب و اللغة القدماء منذ القرن الثاني للهجرة، فعلام هذه الضجة الزائفة و لماذا الطعن فيه و لم يتم اتهام السابقين له فالدكتور لم يكن أول باحث في العصر الحديث بحث في صحة الشعر الجاهلي و أسباب الانتحال فيه بل كان آخرهم».[1]

إن هؤلاء المدافعين عن "طه حسين"، أشاروا إلى أن القضية كانت مطروقة قبله، وفي الواقع تناولها الكثيرون قبله من أمثال "ابن سلام" و"ابن قتيبة"، حيث رأوا بأن هناك من أفسد الشعر بانتحاله، كما ذكروا فساد روايته ورواته، لكن "طه حسين" لم يقتصر على هذه الأمور، و إذا كان القدامى رأوا بأن هناك من القصائد ما هو موضوع، فطه رأى بأن أغلبه منتحل، كما أن الشيء الذي يؤاخذ عليه هو مسّه لأمور العقيدة.

وفي الأخير نستنتج بأن كل من "الجاحظ "و "طه حسين" تناول موضوع الانتحال بطريقة مختلفة فنجد "الجاحظ" لم يطل الكلام في هذا الموضوع بينما تعمق "طه حسين" في دراسته.

و أثناء بحثنا في هذا الموضوع و جدنا أن الناقدين يلتقيان في نقاط و يختلفان في أخرى و قد صعب علينا كثيرا أن نفصل بين أوجه الشبه و الاختلاف ذلك أنه عند وقوفنا على بعض المواضيع نجدهما يتفقان في رأي و يختلفان في آخر.

فمثلا في تناول الناقدين للشعر المنتحل نجد أن كليهما تناولا أبياتا من الشعر الجاهلي و اعتبراها منتحلة.

فهما يتفقان في كون الرواة و القصاص هم الذين تزيدوا في الشعر و نسبوه لغير قائلـه ،فكانوا يضعون القصائد و ينسبونها للعرب كما يرى كل منهما أن الدليل على أن

[1]– عبد الرحمان بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص٥.

الشعر منتحل هو ذكر الشعراء لأمور في قصائدهم لم تكن من الجاهلية في شيء كذكر انقضاض الكواكب و ذكر أمور تتصل بالدين كيوم البعث مثلا و يؤكدان على أن شاعرا يتناول مثل هذه الأمور تخص الإسلام وورودها في شعر جاهلي دليل على أن الرواة و القصاص هم من وضعوا هذا الشعر و نسبوه للشعراء الجاهليين ثم نراهما يختلفان في تحليلهما فالجاحظ يكتفي بالتشكيك في الشعر بينما "طه حسين" شكك في أسماء و كنية و نسب بعض الشعراء و حتى الأخبار التي دارت حولهم و القصص التي تعلقت بميلادهم.

أما عن المنهج المتبع في دراستهما لهذه القضية فإنهما اتبعا نظرية الشك و لكن بطريقة مختلفة اتبع "الجاحظ" منهج "ابن سلام" في التمييز بين الشعر الصحيح و المنتحل و أضاف على منهج "ابن سلام" أدلة أخرى كما اتبع منهجه في الشك والذي لا يختلف عن منهج "ديكارت".

و اتبع "طه حسين" منهج الشك عن "ديكارت" و اعتبره المنهج الأمثل للبحث عن الحقائق و اتبع طريق الشك للوصول إلى اليقين و يرى بأننا لا يجب أن نقبل كلما قاله القدماء بل علينا أن ننسى عواطفنا و تعصباتنا الدينية و القومية.

و نحن نرى أن كليهما اتبعا منهج الشك و لكن طه حسين بالغ في إتباع هذا المنهج فرفض الشعر الجاهلي و شك فيه شكًا قويا حتى أدى به ذلك إلى إثارة غضب واستهجان النقاد حتى اتهم بالكفر.

و عن أسباب الانتحال يتفق كل من الجاحظ و طه حسين في أن الجاهليين كباقي الأقوام سعوا إلى تخليد ذكراهم و مآثرهم فلجؤوا إلى الانتحال ليجعلوا من الأمة العربية الأغنى أدبيا و ثقافيا.

و لكن "طه حسين" يختلف عن "الجاحظ" في تفصيله لأسباب الانتحال و يرجعها لأمور سياسية و دينية و القصص و الشعوبية و الرواة و ربما يكون من الأسباب الرئيسية

التي جعلت "طه حسين" يشكك في الشعر الجاهلي هو ميله للغرب فكانت آراؤه سلاحا ضد العرب و الإسلام فكان يقدم كل ما من شأنه أن يهين العرب فقد دافع عن أوروبا و الغرب ضد قومه العرب و المسلمين و هذا ما يفسر تأكيده على أن الشعر الجاهلي كله منتحل و جعل منها قضية يدافع عنها فضرب بذلك قومه و حتى عقيدته على حد قول بعض العلماء و لكن "الجاحظ" وعلى الرغم من اعتباره أن بعض الشعر منتحل إلا أنه بقي معتزًا بعروبته يعلي من شأنها و يدافع عنها.

خاتمة

خاتمة:

نأتي إلى نهاية بحثنا لنستخلص أهم ما انتهينا إليه من نتائج، فقد كان الغرض من الدراسة هو: التعريف بقضية الانتحال، ثم عقد مقارنة بين "الجاحظ"و"طه حسين" و كيفية تناولهما لموضوع الانتحال، و ما تحمله آراء كل منهما، و المنهج الذي اتبعه كل منهما، مع محاولة تقديم البحث بشكل موضوعي دون التعصب لأي طرف.

و من خلال بحثنا في هذا الموضوع وجدنا أن مفهوم الانتحال: هو أن يأخذ الشاعر كلام غيره و ينسبه لنفسه ليدعي أنه قائله، أو أن ينسب للشاعر قصيدة و هي من قبيل غيره.

ولم يكن "الجاحظ" أو "طه حسين" أول من خاض غمار البحث فيها فقد سبقهم الكثيرون من أمثال" ابن سلام" و"ابن قتيبة "وغيرهما ... .

كما تناولها المحدثون من "أمثال مصطفى صادق الرافعي"، إضافة الى "المستشرقين" الذين كانوا يهدفون لأغراض خبيثة، فقد كان غرضهم من هذه الدراسة التشكيك في الشعر الجاهلي.

أما فيما يخص تناول "الجاحظ "و"طه حسين" لهذه القضية ، وجدنا أن "الجاحظ" درسها بشكل عام واقتصر على ذكر بعض الأبيات ليعتبر أنها منتحلة مع ذكر الحجج أحيانا واغفالها أحيانا أخرى كما أرجع سبب الانتحال إلى سعي العرب لتخليد مآثرهم كغيرهم من الأقوام بينما تناول "طه حسين" هذه القضية وتعمق في دراستها ، ورأى بأن أسباب الانتحال تكمن في :

– القصص و الرواة: فقد كان القصاص بحاجة لتدعيم أحاديثهم و أخبارهم فاضطروا للانتحال.

كما أرجعه لأسباب سياسية و دينية، فالعرب مسلمون، و هم محتاجون إلى الاعتزاز بهذا الإسلام، فأدى بهم ذلك إلى الانتحال.

لقد اختلف "الجاحظ "و"طه حسين" في طرحهما للقضية فكان لكل منهما أسبابه ودوافعه فالجاحظ معتز بعربيته، فعاطفته و حبه لكل ما هو عربي لم يجعله يشكك في الكثير من الشعر الجاهلي.

بينما اعتبر "طه حسين" بأن أغلب الشعر الجاهلي شعر اسلامي أضيف لشعراء جاهليين وكانت له أسبابه في كل ما اتجه إليه فهو ميال للغرب شديد الاخلاص والحب لكل ماهو غربي إضافة إلى تأثره بالمستشرقين والعاطفة القوية التي كانت تربطه بزوجته الغربية كل هذه الأمور كان لها الأثر الكبير في أرائه وتوجهاته النقدية.

لقد اتبع "الجاحظ" منهج "ابن سلام" في تمييزه بين الصحيح و المنتحل بينما اتبع "طه حسين" منهج الشك الديكارتي، ونستخلص بعد مقارنتنا لمنهجيهما بأن "الجاحظ" سبق "طه حسين" في اعتماده منهج الشك أساسا للدراسة ،كما اتبع "الجاحظ" منهج "ابن سلام" في التمييز بين الشعر الصحيح والمنتحل فاعتمد على شهادة الرواة ومبدأ التفاوت في الشعر لكنه أضاف دليلا جديدا هو الدليل الداخلي .

أما "طه حسين" فقد اتخذ الشك منهجا فاعتمد على مبدأ تفاوت الشعر شأنه في ذلك شأن الجاحظ لكن الاختلاف بينهما يكمن في تطبيقهما للمنهج فالجاحظ شكك في بعض الأبيات بينما بالغ "طه حسين" في شكه ليعتبر أن جل الشعر الجاهلي منتحل.

لم يتعرض "الجاحظ" للنقد بالقدر الذي تعرض له "طه حسين"، فقد فتحت عليه أبواب النقد، وانهالت عليه الشتائم، ومن الطبيعي أن تجد مواقفه النقدية من الشعر الجاهلي هذا الهجوم الكبير من النقاد نظرا لما فيها من جرأة فقد ثار على كل قديم بداعي التجديد ليقع في فخ التبعية للغرب

و في الأخير نأمل أن نكون فقد وفقنا في بحثنا الذي أردنا من خلاله أن نكشف عن إحدى أهم القضايا النقدية التي أثارت جدلا في أوساط النقاد، و التي تناولها كل من "الجاحظ" و" طه حسين".

و يمكننا القول بأن "الجاحظ" و "طه حسين" من كبار علماء العرب حقا، و لكن هذا لا يمنع أن يقعا في الخطأ و خاصة "طه حسين" الذي يعتب عليه ميله الكبير للغرب كما يؤاخذ عليه غلوه في الهجوم على القديم، لكن على الرغم من كل الأخطاء التي وقع فيها "طه حسين" والانتقادات الموجهة له فالفضل يعود له في إثارة هذه القضية، كما أن كتابه في الأدب الجاهلي لا يزال محل دراسة ونقاش في أوساط العلماء

و أخيرا نتمنى أن نكون قد وفقنا إلى حد ما في عقد المقارنة بين هذين العالمين الفذين، و لله الحمد و المنة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر و المراجع

١ *المصادر :

***القرآن الكريم برواية ورش.**

- **الجاحظ:** البيان و التبيين، الجزء١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف الطبعة١٤،١٩٢٥م.

- البيان و التبيين،الجزء٢، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخفاجي بالقاهرة. الطبعة١٤١٨،٧هـ-١٩٩٨م

الحيوان، الجزء١، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة١٣٨٥،٢هـ-١٩٦٥ م.

- الحيوان، الجزء٦، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبية ومطبعية مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر،الطبعة١٤٨٦،٢هـ-١٩٩٧م

- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة السنة المحمدية القاهرة

- فلسفة الجد والهزل تحقيق الشيخ محمد علي الزعبي، دار الشؤون الثقافية العراق بغداد.

- **طه حسين:** - في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق محمد عبد الرحمن محمد ، الطبعة٣ ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣م.

- في الشعر الجاهلي، الطبعة ١، سوريا، دمشق، ٢٠٠٩م.

- حديث الأربعاء، الجزء ١، دار المعارف، الطبعة١٤، ١٩٢٥ م.
- الأيام، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠١٢م.
- مذكرات طه حسين ، الطبعة١،دار الكتب بيروت ، ١٩٦٧.
- خصام و نقد ، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، جمهورية مصر العربية ٢٠١٢ م.

- **ناصر الدين الأسد:** مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية، مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف، الطبعة السادسة ١٩٨٢م.

٢ـ المراجع:

ـ **أحمد أمين:**ضحى الإسلام، الجزء١، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة،١٩٩٧م.

- **أنور الجندي:** طه حسين حياته و فكره في ميزان الإسلام، دار الاعتصام، الطبعة٢ ١٣٧٩هـ-١٩٧٧م.

- **إبراهيم عوض** : معركة الشعر الجاهلي بين الرافعة و طه حسين ، مطبعة الفجر الجديد،١٩٨٧م.

- **بدوي طبانة** :التيارات المعاصرة في النقد الأدبي،دار المريخ للنشر،الطبعة ٣ الرياض ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- **جابر عصفور**:المرايا المتجاورة، دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

- **جميل جبر**: الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد، دار صادر بيروت.

- **حسن السندوي**: أدب الجاحظ ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، الطبعة١ ، ١٣٥٠ هـ- ١٩٣١ م .

- **أبو الحسن بن رشيق القيرواني:** العمدة في نقد الشعر، شرح وضبط الدكتور عفيف نايف حاطوم.
- **أبو الحسن بن علي المسعودي:** مروج الذهب ومعادن الجواهر، الجزء١، المكتبة العصرية صيدا بيروت ،الطبعة الأولى ،١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م
- **أبو الحسن بن علي المسعودي:** مروج الذهب ومعادن الجوهر،الجزء٤،المكتبة العصرية صيدا، بيروت،١٣١٦هـ- ١٩٨٧م.
- **الخطيب القزويني:** الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ،دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى ،بيروت لبنان، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- **الخليل بن أحمد الفراهيدي:** معجم العين، شرح وتحقيق عبد الحميد هنداوي، منشورات محمد علي بيفون . دار الكتب العلمية . بيروت لبنان . الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.
- **خير الدين الزركلي:** الأعلام ، الجزء ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، أيار مايو.
- **خير الدين الزركلي:** الأعلام ، الجزء ٣، دار العلم للملايين ، الطبعة ١٥ ، بيروت لبنان ، أيار مايو٢٠٠٢.
- **رمضان عبد التواب:** فصول في فقه العربية، الطبعة ٦.
- **عبد الرحمن بدوي:** دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين الطبعة ١ ، تشرين ٢ ، نوفمبر ١٩٧٩ م .
- **زكي مبارك:** النثر الفني في القرن الرابع،الجزء١،المكتبة التجارية الكبرى،الطبعة٢،يناير١٩٣٤م
- **طه حسين:** مع أبى العلاء في سجنه، دار المعارف ، ١٩٣٩ م.
- تجديد ذكرى أبى العلاء، مطبعة المعارف و مكتبتها بمصر، الطبعة ٣ ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م.

– حافظ و شوقي، مؤسسة هنداوي للعلوم و الثقافة، جمهورية مصر العربية القاهرة ،٢٠١٢م.

– مع المتنبي، دار المعارف، الطبعة١٣.

– **محمد أحمد الغمراوي:** النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة ، ١٣٤٧ هـ –١٩٢٩م.

– **محمد أحمد محمد فرج عطية:** طه حسين والفكر الاستشراقي،وزارة الشؤون الدينية والأوقاف قطر، الطبعة١،١٤٣٥هـ–٢٠١٤م.

– **محمد الخضر حسنين:** نقض كتاب في الشعر الجاهلي، المكتبة الأزهرية للتراث.

– **محمد حافظ إبراهيم:** المؤلفات الكاملة ، مؤسسة هنداوي للعلوم و الثقافة ، جمهورية مصر العربية ، القاهرة، ٢٠١٢م.

– **محمد رجب بيومي:** موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي، مطبوعات جامعة الإمام. محمد بن سعود الإسلامية المطابع الأهلية للأوسفت ، الرياض.

– **محمد زكي العشماوي:** قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث ، دار النهضة العربية بيروت ، ١٩٧٩م.

– **محمد صايل حمدان– معاذ السرطاوي – عبد المعطي نمر موسى:** قضايا النقد القديم دار الأمل للنشر و التوزيع ، الأردن ، الطبعة ١، ١٤٠٤هـ–١٩٩٠م.

– **محمد عبد الغني المصري:** نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي، الطبعة ١، دار مجدلاوي، عمان الأردن،١٤٠٧هـ–١٩٨٧م.

– **محمد فريد وجدي:** نقد كتاب في الشعر الجاهلي، مطبعة دائرة المعارف القرن العشرين بمصر، الطبعة ١، أكتوبر ١٩٢٦م.

– **مجد الدين بن محمد بن يعقوب الفيروزبادي:** القاموس المحيط، المجلد٤، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، الطبعة ٢،١٩٨٤م.

- **مجدي وهبة- كامل المهندس:** معجم المصطلحات العربية في اللغة و الأدب، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، الطبعة ٢، ١٩٨٤م.
- **محمد محمود البارودي:** عمالقة الأدب العربي المعاصر ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان .
- **محمود مهدي الاستانبولي:** طه حسين في ميزان العلماء و الأدباء، المكتب الإسلامي الطبعة ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- **منيف موسى:** في الشعر والنقد، دار الفكر لبنان، بيروت لبنان، الطبعة١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- **مصطفى صادق الرافعي:** تحت راية القرآن ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

-تاريخ آداب العرب، الجزء ١، دار الأصالة، الجزائر الطبعة١.

- **مصطفى عبد الرحمان إبراهيم:** في النقد الأدبي عند العرب، مكة للطباعة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- **مصطفى غالب:** عباقرة الأدب، منشورات حمد، بيروت .
- **صالح العلي صالح- أمينة الشيخ – سليمان الأحمد:** المعجم الصافي في اللغة العربية الرياض.
- **عبد العزيز عتيق:** في السند الأدبي، دار النهضة العربية بيروت لبنان، الطبعة الأولى
- **عزت السيد أحمد:**فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات اتحاد كتاب العرب دمشق ٢٠٠٥.
- **عمر فروخ** :تاريخ أدب العرب الأعصر العباسية، الأدب المحدث إلى أخر القرن الرابع الهجري ، الجزء ٢، دار العالم للملايين بيروت ،الطبعة الأولى.
- **عصام قصبجي:**أصول النقد العربي القديم، مديرية الكتب للمطبوعات الجامعية ١٤١٦هـ

– **فوزي السيد عبد ربه** :المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان و التبيين ، مكتبة الأنجلو المصرية محمد فريد ،القاهرة، ٢٠٠٥م.

– **أبي فرج قدامة بن جعفر**: نقد الشعر، قسنطينة، الطبعة الأولى، ١٣٠٢هـ.

– **أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور**: لسان العرب، المجلد الخامس، دار صادر بيروت.

– **قصي الحسين**: النقد الأدبي، عند العرب و اليونان و معالمه و أعلامه المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس، لبنان.

– **سيد أحمد الهاشمي**: جواهر البلاغة، ضبط وتدقيق و توثيق، يوسف العسيلي المكتبة العصرية.

– **ابن سلام الجمحي**: طبقات فصول الشعراء، تحقيق محمد محمود شاكر ، مطبعة المدني القاهرة.

– **شارل بيلا**: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.

– **شوقي ضيف**: العصر الجاهلي، تاريخ آداب العرب، دار المعارف ،الطبعة الحادية عشر.

– الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، الطبعة ١٠،١٩٩٢م.

.

– **هند طه حسين** : النظرية النقدية عند العرب ،دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة و الأعلام ،الجمهورية العراقية، ١٩٨١ م.

– **يحيى شامي**: طه حسين أديبا و فاقدا،دار الفكر العربي ،بيروت ،الطبعة الأولى ١٩٩٠.

٣– الدواوين:

– **أحمد شوقي**: الشوقيات ،المجلد ٢ ،جمهورية مصر العربية، ٢٠١١م.

- **حنا نصر الحي** : ديوان النابغة الذيباني ، دار الكتاب العربي، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ-١٩٩١ م.
- **مهدي محمد نصر الدين** :ديوان طرفة ،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٣٣ هـ- ٢٠٠٢ م.
- **محمد حسين:** ديوان الأعشى ،مكتبة الأدب بالجماميزت ،المطبعة النموذجية.
- **عبد مهنا** : ديوان حسان بن ثابت ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ،الطبعة الثانية ١٤١٤هـ-١٩٩٤ م.
- **ابن السكيت** : ديوان الخطيئة ،دراسة وتبويب،،مفيد قميحة.
- ديوان لبيد بن أبي ربيعة ، دار صادر بيروت.
- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨٦ م.

٤- المجلات و الدوريات:

- **أحمد عبد المنعم الحلو:** رواية الأدب الجاهلي في مؤلفات الجاحظ المنهج و الأثر مجلة اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤، الجزء ٢.
- مجلة أفاق المستقبل ابريل يونيو العدد ١٤.
- **قيس كاظم الجنابي:** مقال البيان و التبيين ،بوصفه نقدا شعريا ثقافة وفن الصحيفة المركزية للاتحاد الوطني الكردستاني.
- **محمد محمدي:** مجلة الخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة الجزائر.
- **جيا فخري عمر لجاف،خليل حميدالنقد:** في العصر العباسي، الجاحظ ودوره الحضاري في القرن الثالث الهجري مجلة كلية التربية، العدد التاسع، كلية التربية للبنات جامعة بغداد.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة.....أ-هـ

الفصل الأول: مؤثرات العصر في ثقافة الكاتبين.....**7-53**

1-جوانب من حياة الجاحظ.....**7**

أ-عصر الجاحظ.....7

ب - مولده و نشأته.....8

جـ- اسمه أصله و نسبه.....10

د- فلسفة الجاحظ و منهجه العلمي.....13

هـ- حياته العلمية و العملية.....17

و- أسلوب الجاحظ.....20

ز- وفاته و آثاره.....22

2- جوانب من حياة طه حسين.....**28**

أ- صورة عصر طه حسين.....28

ب- مولده و نشأته.....31

جـ- طه حسين و أيام الصبا.....32

د- ثقافة طه حسين.....40

هـ- أهم المؤثرات في شخصية طه حسين.....42

و- مسيرته العلمية وفاته و آثاره.....50

الفصل الثاني: القضايا النقدية بين الجاحظ و طه حسين.....**55-86**

1- القضايا النقدية عند الجاحظ.....**55**

أ- السرقات الشعرية.....55
ب- قضية الوضوح و الغموض.....57
جـ- قضية الصدق و الكذب.....58
د- الطبع و التكلف.....61
هـ- اللفظ و المعنى.....65
2- القضايا النقدية عند طه حسين. 69
أ- الوضوح و الغموض.....70
ب- قضية الصدق عند طه حسين.....71
جـ- الطبع والتكلف.....72
د- اللفظ والمعنى.....79
الفصل الثالث: الموازنة بين الجاحظ وطه حسين في تناولهما لقضية الانتحال 88-128
1- الانتحال مفهومه وموضوعه.....88
أ- نبذة عن السرقات الشعرية و أنواعها.....88
ب- مفهوم الانتحال.....91
2- الموازنة بين الناقدين.....98
- أوجه الشبه بين الناقدين.....98
أ- الاشتراك بالمعاناة و الإحساس بالظلم.....98
ب - بيئة كل من الجاحظ و طه حسين وأثرها في أدبهما.....99
جـ- أسباب الانتحال.....100
- أوجه الاختلاف.....105

أ- اعتزاز الجاحظ بعربيته و ميل طه حسين للغرب. 105
ب- طريقة تناول الناقدين للشعر المنتحل..109
ج- المنهج المتبع في دراسة قضية الانتحال عند الناقدين..........................115
د- الانتقادات الموجهة للجاحظ و طه حسين..118
هـ- ردة فعل كل من الجاحظ و طه حسين تجاه النقد الموجه إليهما................125
الخـاتمـة...130
- المصادر و المراجع..134
- فهرس الموضوعات..142